الكتاب الأول

الهلالية فى التاريخ

الباب الأول

فى العصر الجاهلى

اصطلح أكثر الناس على أن يفهموا من « الجاهلية » ما يقابل المعرفة ، وهو معنى يغلب عليه النظر الدينى ، ولكننا نميل إلى إعادة مدلوله من المعنى الاصطلاحى إلى المعنى اللغوى الأول ، ونفهم منه ما يقابل الحلم لا ما يقابل العلم ، أى ما غلظ وما خشن وما قسا[1] . ومن ثم فهو يدل على نوع من الحياة أو طور من الثقافة تغلب عليه الخشونة وشظف العيش .

ولا نريد أن نتبلبل فى تحديد هذه الفترة ، كما فعل القدماء ، فنجعل الأنبياء معالمها ، ونذهب إلى أنها كانت فيما بين آدم ونوح[2] ، أو بين نوح وإدريس[3] . أو نوح وإبراهيم ، أو ما بين موسى وعيسى ، أو ما بين عيسى ومحمد[4] . ذلك لأننا نقصر بحثنا على الجاهلية العربية دون سواها ، بل على جاهلية فريق بعينه من الأمة العربية ، مما يجعلنا نميل إلى القول بأن الجاهلية هى الفترة التى سبقت الحضارة مباشرة ، ولا جناح علينا فى أن نجعل خاتمتها هى الدخول فى الاسلام عند ما تداعت القبائل العربية إلى الوحدة الشاملة وكونت أو كادت تكون أمة ذات مقومات متجانسة ، وإن احتفظت ببعض عناصرها بآثار من العهد القديم .

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « جاهلية » (الترجمة العربية) .
(٢) الآلوسى ، بلوغ الأرب ج ١ ص ١٥
(٣) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ج ١ ص ٨٣
(٤) الآلوسى ، بلوغ الأرب ج ١ ص ١٥

وسواء عندنا أصحت هذه الأنساب التى تجمع أو تفرق بين الأسر والعشائر والقبائل العربية فى الأصل الجاهلى أم لم تصح ، فان الذى لاشك فيه أن فكرة الأصل المشترك لكل جماعة عربية ، كبرت أو صغرت ، هى التى كانت تصوغ حياتها وتكيف تاريخها وتملى أيامها فى حدود الضرورة الطبيعية التى تدفع الناس إلى الاجتماع على مدافعة الشر أو الافتراق على الاستئثار بالخير . وكلما استفحل الخطب واشتدت النازلة طلبوا أصلا أبعد من أصلهم القريب يجمع ما تفرق من أشتاتهم ويقوى ما انفصم من أحلافهم .

ولم يكن الهلالية الذين عرفوا فى التاريخ ، وكان لهم هذا الأثر القوى فى كل بقعة حلوا فيها ، قبيلة واحدة يجمعها أب واحد ، وإن غلب عليها « هلال » ، وإنما كانوا أخلاطا من القبائل بينهم « سليم » الذين لاتقل شهرتهم عن الهلالية إن لم تزد ، والذين لايمكن أن يذكر الهلالية دون أن يذكروا [1] ، ومنهم غير أولئك وهؤلاء ممن يجتمعون وإياهم على أصل عريق ، هو « قيس عيلان » كانوا يتعارفون باسمه ويتنادون باسمه ويستغيث بعضهم ببعض باسمه أيضا .

ولسنا نستطيع أن نتعرف على هؤلاء الهلالية ومن حالفوا ، إلا إذا بدأنا من هذا الأصل المشترك الذى كانوا يؤمنون بانحدارهم جميعا منه ، والذى كانوا كلما تفرقت كلمتهم أو تناءت ديارهم التمسوا الوحدة فيه . ولا يعنى الباحث أن يؤمن معهم بهذا الأصل المشترك أو أن يشك مع العلماء المحدثين فيه ، ما داموا قد وجدوا أنفسهم عليه وتصرفوا فى حياتهم على هديه والاستمساك به .

ولنبدأ إذن البحث بقيس عيلان ، وما يعنينا بطبيعة الحال أن نوفق أو نفرق بين قيس عيلان أو قيس عيلانه أو قيس بن عيلان [2] ودلالة هذا أو ذاك

---

(١) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ط بولاق ، ج ٦ ص ١٢ وما بعدها .

(٢) ابن دريد ، الاشتقاق ، طبعة فستنفلد ص ١٦٢ ؛ ابن خلدون ج ٢ ص ٣٠٥

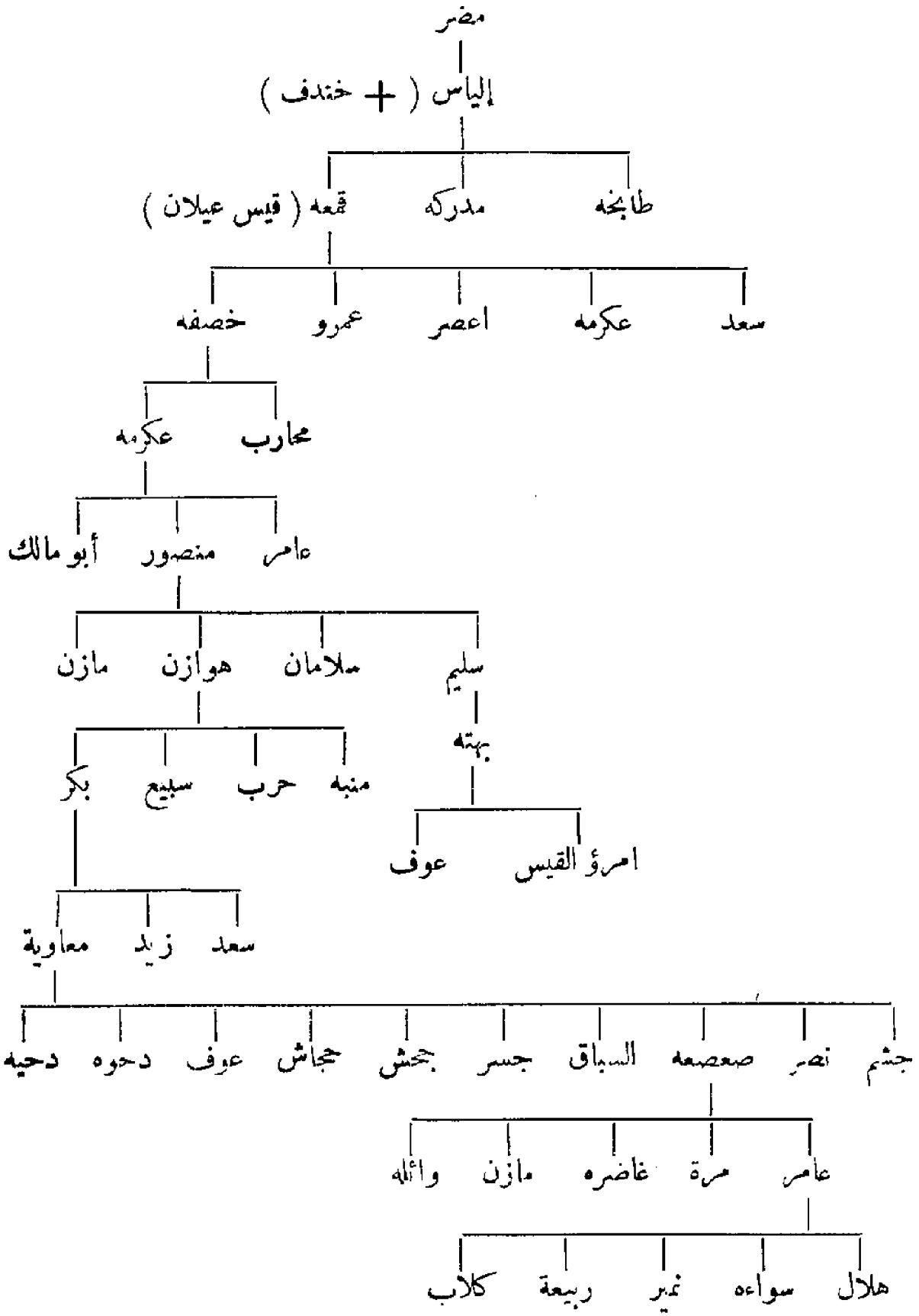

« قيس عيلان » شجرة النسب الخاصة به .

على التذكير أو التأنيث وأهميته فى علم الانسان ولكن الذى يعنينا ، وهو ما يكاد يكون من المجمع عليه عند القدماء ، أن عرب الشمال كلهم ، أو بعبارة أدق ، أن مضر كلها ترجع إلى أصلين اثنين هما : خندف ، وقيس عيلان [١] ، ونحن نضرب صفحا عما يقال عن خندف من أنها زوج إلياس أو غير زوجه ، وأن ولد إلياس جميعا إنما يرجعون إليها حتى عرفوا بها ، وقيس عيلان فى المشهور هو قمعه بن إلياس ابن مضر [٢] .

وقيس عيلان كسائر الأسماء التى تطالعنا بها كتب الأنساب أو روايات الأيام ، لا يمكن أن نستخلص له شخصية مستقلة قائمة برأسها لها ملامح نفسية واضحة الدلالة عليه . وكل ما يستخلص من هذه الأعلام دلالتها على جمع من الناس يربط بينهم اعتقاد راسخ بالانحدار من صلبه والاشتراك فى القرابة عن طريقه . أما ولده — كما تذهب إلى ذلك الروايات — فهم سعد وعكرمه وأعصر وعمرو وخصفه . وبعض النساب يزعم أن عكرمة هو ابن خصفه . وأعصر هو ابن سعد [٣] .

وإذا تتبعنا شجرة النسب التى تعنينا فى موضوعنا بخاصة ، فاننا نجد أن خصفه أنجب رجلين هما : محارب وعكرمة . وذكر بعض النسابة أن عكرمة هو ابن قيس وليس ابن خصفه . ومن ولد عكرمة هذا ، منصور الذى نستطيع أن نعده الأصل المشترك الثانى للهلالية لأن منه هوازن وسليم اللذين يجمعان بطون الهلالية أو أكثر بطونهم .

وسليم عنصر من أقوى عناصر الهلالية ، وإن كان إطلاق الهلالية عليهم توسعاً ومجازا ، لأن سليما أعرق من هلال ، كما أنهم كانوا من أغنى القبائل العربية مالا

---

(١) ابن قتيبة : المعارف (القاهرة ١٣٥٣) ص ٣٠ ؛ الطبرى ج ٢ ص ١٢٩٨ ، ١٩٢٩

(٢) ابن قتيبة : المصدر المذكور ص ٣٠

(٣) المصدر السابق ص ٣٦

وأخصبهم أرضاً وأوفرهم عددا . ومن قبائل سليم بنوحزم و بنوخفاف وسمالك ورعل وذكوان ومطرود وبهز وقنفذ ورفاعه وعصية وظفر وبجله وحبيب بن مالك و بنو الشريد و بنو قتيبة[١] . وقد خرجت بجله من بنى سليم وصارت فى بنى عقيل . ويذكر المعنيون بالأدب وتاريخه ، بنى الشريد وهم بيت من سليم ، لأنه أنجب الخنساء أشهر شواعر العرب الجاهلية .

وقد أثر عن هوازن أخى سليم ، أن ولده أربعة هم : بكر وسبيع وحرب ومنبه . ولا عقب لسبيع وحرب على المشهور . ويعنينا من الاثنين الباقيين بكر لأنه أعقب سعداً وزيداً ومعاوية . وتذكر الروايات أن معاوية قتل أخاه زيداً ، وهو أول من فدى بالابل . وكان معاوية بن بكر كثير الولد ، ولكن أشهر أبنائه هو صعصعة ، ولعل شهرته ترجع إلى ابنه عامر[٢] .

وقلما يظهر اسم عامر بن صعصعة بالقياس إلى غيره علماً على قبيلة قائمة برأسها ، ولكنه يظهر بصفة عامة علماً على عدد من القبائل تنسب إلى مجموع هوازن . ومن عامر . مرة وغادرة ومازن وواثلة وسلوب وكلاب ونمير وقشير وربيعة وسواءه وعقيل[٣] . ويتفاوت مكانهم من الأصل العامرى المشترك قوة وضعفاً ، وأخص من يذكر من ولد عامر ، « هلال » الذى عرفت باسمه سائر القبائل التى هزت الدول الاسلامية فيما بعد هزاً عنيفاً ، وغيرت من أوضاعها ، وقوضت بعض نظمها وتقاليدها .

وهذه الأنساب على ما نرى عبارة عن حلقات قليلة غير مرتبطة فى سلسلة قصيرة لا يمكن أن تدل على سياق زمنى متصل أو على فترة تاريخية معينة ، كما أنها

---

(١) ابن قتيبة : المصدر المذكور ص ٣٨

(٢) المصدر السابق ص ٣٩ . تصعصع القوم : تفرقوا ؛ ابن دريد . الاشتقاق ص ١٤٧ والصعصعة هى الحركة ، الجلبة ؛ لسان العرب ج ١٠ ص ٦٧

(٣) ابن دريد : الاشتقاق ط فستنفلد ١٨٥٤ ص ١٧٨ ؛ ابن قتيبة المصدر المذكور ص ٣٩

لا تعطينا صورة صادقة أو مقاربة لمشخصات هؤلاء الأعراب الجماعية فبعضها يشير — كما يذهب إلى ذلك بعض علماء الأنساب — إلى حقيقة الأمومة المتوغلة فى القدم، وبعضها يشير إلى كائنات طوطمية غير ذات وضوح [١] . وربما كانت كذلك فى الأصل ؛ ولكنها فى الفترة التى نحن بسبيلها لا تدل على شىء له قيمته ، فأسماء النجوم والكواكب مثل « هلال » موجودة فى قيس وجودها فى غيرها ، بل هى موجودة فى العرب النزارية وجودها فى القحطانية وأسماء الحيوان وصفاتها من هوازن [٢] وكلاب شائعة بين القبائل العربية جمعاء . فلننتقل إذن مسرعين إلى البيئة المكانية نلتمس فيها بعض المشخصات الواضحة المؤثرة فى حياة هذه الجماعات والتى تطبعهم بطابعها القوى الذى لا يخلصون منه حتى ولو فارقوها أمداً غير قصير .

ويكاد يكون من المتعذر أن نحدد ديار كل مجموع من القبائل على وجه التحقيق الدقيق ، ذلك لأن قانون الحياة البدوية فى الجزيرة العربية كثيراً ما كان يضطر القبائل إلى الارتحال من مواطنها وانتجاع مواطن أخرى . ولم تكن هجرة هؤلاء البدو دائما أبدا كهجرة الطير فى مواسم طبيعية بعينها من موضع بعينه إلى موضع بعينه والعودة إلى الموضع الأول وهكذا . . . فكثيراً ما تجاوزا طلب الغيث وانتجاع الكلأ وتقطعت بهم — عامدين أو غير عامدين — أسباب العودة إلى ديارهم الأولى . ومن ثم اتسعت الدائرة على الباحث فى مجموع هذه القبائل ومنازلها واختلطت الروايات عليه ، وليس من سبيل يصل فيه إلى شىء راجح إلا بتتبع مختلف الروايات تتبعه للأنساب سواء بسواء .

وتتشعب المسالك على الباحث فى ديار قيس ، فان القصص تزعم أن موطن قيس الأصلى هو « تهامه » [٣] ، ثم انتشروا فى العصر الجاهلى ، وأن لم يكن ذلك قبل

---

(١) محمد عبد المعيد خان ، الاساطير العربية قبل الاسلام ، القاهرة ١٩٣٧م ص ٦١ وما بعدها .

(٢) الهوزن : اسم طائر والجمع هوازن . ابن دريد الاشتقاق طبعة فستنفلد ١٨٥٤ ص ١٧٧

(٣) البكرى ، طبعة فستنفلد ص ٥٧ ؛ ياقوت ، مادة تهامه ج ١ ص ٤٦٣ وما بعدها .

قبل الاسلام بأمد طويل فى رقعة متسعة من الأرض أواسط الجزيرة العربية وشماليها . وأقامت جماعات منهم فى الشمال الشرقى والجنوب الشرقى من مكة . وتفرقت أخرى فى مشارف نجد ومواضع من الحجاز واليمامة . وبلغوا البحرين وشاركوا فى مملكة الحيرة اللخمية ووصلوا إلى العراق[1] .

وتضيق الرقعة قليلا عند ما تنظر فى منازل سليم ؛ فقد انتشروا على حدود نجد والحجاز ، تتاخمهم من ناحية الشمال المدينة ومن الجنوب مكة . وكان إلى شرقيهم ديار بنى عمومتهم من القيسية . وظلوا فى مواضعهم هذه لغناها ، ففيها نجاد بركانية كثيرة المناجم وتلال معشوشة وواحات نضرة . ومن أشهر مواضعهم : الربذة وفران ومعدن البرم ، وصفينه ، والسوارقيه ، وذو سويس عصنان واله ، والصليب ، وعماية وقلح ، والأباتر ، وجواد (وهو موضع رمل) والعرجاء شوان ، وكفف . وتطيب فى أراضيهم أشجار الفاكهة من نخيل وموز ورمان . ومن دلائل النعمة فيهم خيلهم الفارهة وقد كانوا يتحكمون فى الطريق إلى المدينة وشعاب نجد والسبيل المؤدية إلى الخليج الفارسى ، حتى آثر يهود المدينة وتجار مكة ومن إليهم ، التحالف معهم طوال العصر الجاهلى تقريباً . وكثير من أسماء المواضع التى يتألف منها موطن سليم مركبة يدخلها لفظ « معدن » إشارة إلى وفرة المناجم فيها وبخاصة مناجم الذهب والفضة فى العقيق والحجيرة وغيرهما .

وقد تفرقت هوازن فى نجد على حدود اليمن وشرقى الحجاز بالقرب من مكة .

ومن المواضع التى تنسب إليهم : أملح وعدس المطاحل والدردا والضبعان وفيف الفحلتين وفيف الريح .

ومن أوديتهم : أوطاس وليه .

---

(١) الطبرى ج ١ ص ١٩٦٨ ؛ والمسعودى طبعة بربيه ده مانيار . مروج الذهب ج ٥ ص ٦٥

ومن مياههم : ذو الحليفة وتيان أو ثيان .

ومن جبالهم : المضيح .

وكان بنو عامر ناحية الشمال جيران قبائل أخرى من هوازن وسليم وانتشروا فى اليمامة . وكانوا إلى الجنوب جيران ثقيف وبلغوا تثليث بل ونجران . وبلغوا أيضا البحر الأحمر ناحية الغرب .

وكانت منازلهم تنسب بصفة عامة إلى بنى عامر دون تحديد لمواضع كل قبيلة .

ومن أوديتهم : يدى ودارا وركبة .

ومن مياههم : الجف وأمره والنسار .

ومن جبالهم : غارمة والعس وجبلة وقبائل والمذنب ونيل وواسط وجراح .

أما بنو هلال فكانوا كأحلافهم يعيشون فى نجد على حدود اليمن أيضاً ومن منازلهم . العبلاء وبريك ودوس والفتق والقريحة وغروش وصران (وهى مدينة عامرة كثيرة الآبار يجود فيها النخيل ويطيب القمح) وصريحة أو ضريحة وعكاظ (التى غلبوا عليها فيما بعد) .

ومن أوديتهم : جلذان وزبيه (وقيل رنية) وتربه بالقرب من مكة وهى غاية فى الخصب ويشاركهم فيها ضباب وعامر بن ربيعة .

ومن جبالهم : بين (مع بحيرة النقاع) والقفاو بيشة .

وانتشرت هذه المنازل متفرقة متناثرة وقد تحكمت فى وجودها الظروف الطبيعية من بئر تستخرج منها المياه الجوفية سقياً وريا ، إلى واد خصيب ينبت البكلأ ، ومن واحة مشجرة إلى منجم يلتمس فيه الذهب والفضة ، تكتنفها المغاور من كل مكان وتقطعها البوادى عن يمين وعن شمال .

ونحن على الرغم من هذا العرض نجد شيئاً من العسر فى استخلاص المشخصات البيئية التى تفرق بين الجماعات وتكسب كل جماعة صفات بارزة تدل عليها . ذلك لأن المظاهر الطبيعية فى ديار الأعراب تكاد تكون راتبة متشابهة ، ومنازل كل قبيلة أو مجموع من القبائل تماثل إلى حد كبير منازل غيرها . وهم إن اختلفوا فانما يختلفون باختلاف النجد والغور والساحل على كثرة النقله وتداخل الجماعات وصغر الفترة التى ظهروا فيها ، ولكننا نستطيع إذا أمعنا النظر أن نلحظ أن ثمة بقعة موحدة الخصائص — بالقياس إلى غيرها مما يجاورها — هى التى تتكاثف فيها ديار القيسية وبخاصة سليم وهوازن ، وفيها عامر وهلال .

وهذه البقعة هى التى تتردد كثيراً كلما ذكرت هذه القبائل مجموعة أو مفرقة وهى التى تعرف باسم نجد . ولكننا يجب أن نحتاط فى إطلاق الاسم لأن دلالته اللغوية القديمة جعلته يدل على كل مرتفع من الأرض فى مقابل السهل أو البسيط ، كما أن دلالته الفنية فى الاصطلاح الطبوغرافى جد مختلفة اختلاف المؤلفين . فأنت ترى الاصطخرى وابن حوقل [١] يقولان إن نجداً يتألف جزؤها العلوى من تهامة واليمن . والسفلى من الشام والعراق . أو بعبارة أخرى الجزء الممتد من بلاد العرب بين اليمامة والمدينة . والذى يخترق الصحراء من البصرة إلى الخليج الفارسى . وابن خرداذبة [٢] يذهب إلى أن نجداً تنسحب على جميع البقاع بين العراق (العذيب) وذات عرق . وقدامة [٣] يقرر أنها الأرض الممتدة من العراق إلى تهامة ، أما الباهلى [٤] فيذكر أنها الأرض التى تمتد خلف ما يعرف بخندق كسرى إلى الحرة .

---

(١) الاصطخرى فى المكتبة الجغرافية العرب ج ١ ص ١٤ — ٢٦ ؛ ابن حوقل ج ٢ ص ١٨

(٢) ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ج ٦ ص ١٢

(٣) قدامة : كتاب الخراج المكتبة الجغرافية العربية ج ٦ ص ٢٤٨

(٤) ياقوت : معجم البلدان ج ٨ ص ٣٥٣ وما بعدها .

فى حين أن الأصمعى [١] يحددها بأنها الأرض الممتدة بين منخفض وادى الرمه ومنحدر ذات عرق .

ويجب كذلك أن نحترز من هذه الأعلام الجغرافية المركبة التى يدخل فيها اسم نجد ، لأن دلالتها أضيق مما يزيد ، فنغض الطرف عما أورده الأصمعى [٢] عن نجد برق (فى اليمامة) ونجد عفر ونجد كبكب (بالقرب من عرفات) ونجد صريع (فى اليمن) وعما ذكره البكرى [٣] عن نجد اليمن وعما أضافه ياقوت [٤] كنجد الحجاز ونجد ألوذ (فى ديار هذيل) ونجد الشرا . وعما عدده الهمدانى [٥] من نجد حمير ونجد مذحج وما إلى هذا السبيل .

ومن الخير أن نلتفت التفاتة خاصة إلى ما ذهب إليه الهمدانى من تقسيم الهضبة العربية إلى « النجد » أو بعبارة أخرى ، نجد العليا وهى التى كانت تضم فى أيامه كورة جرش و بليدة يبميم [٦] وأرض نجد أو نجد السفلى وهى التى تؤلف مع الحجاز والعروض أواسط الجزيرة العربية [٧] وهى التى تعنينا فى بحثنا هذا بخاصة .

وأرض نجد هذه جزء من الهضبة الصحراوية تتألف من الأحجار الأولية تغمرها الرمال وتكتنفها جبال بركانية . أما مظهرها العام فبين السهل الأخضر والجبل الأجرد والبادية الصفراء . وليست بها أنهار بالمعنى الصحيح . فهى تعتمد

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ٨ ص ٢٥٣ وما بعدها .
(٢) ياقوت ج ٤ ص ٧٤٥
(٣) البكرى . المعجم طبعة فستنفلد ١٨٧٦ ، ١٨٧٧ ج ٣ ص ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٥٧٤ ، ٦٢٧ ، ٦٣٧
(٤) ياقوت . المعجم ، طبعة فستنفلد ج ٦ ص ٧٣٨ ؛ ٧٤٥ — ٧٥١
(٥) الهمدانى . صفة جزيرة العرب طبعة مولر ، ليدن ١٨٨٤ — ١٨٩١ ص ١٥٥
(٦) الهمدانى . المصدر السابق ص ١ وما بعدها و ٣٦ وما بعدها .
(٧) المصدر السابق : الموضع نفسه .

فى معظم وجودها على المياه الجوفية تستخرج من العيون التى يتراوح عمقها بين عشرين وثمانين قدماً . وقد تنبطح هذه العيون فتشبه بالمسايل والأنهار . وقد تجف أو تفور فى مجرى أسفل فتتعرض الحياة حولها إلى التلف والهلكة ، إلا أن يفر القادر على الحركة إلى مكان تستطاع فيه الإقامة ولو إلى حين . ومن ثم اعتمد الأحياء فى هذه الأرض على مطر الصيف والشتاء ، ويعرف أولها بالموسمى ، وهو الذى يبعث الحياة فى المروج والمراعى صهرها القيظ ، ويزود الثانى اليابسة بنضارة الربيع . ويفسر هذا ، الكلم المأثور : « سقى الله نجدا من ربيع وصيف [1] » .

وكان فى أرض نجد غاب مشجر مشهور كغاب شرّبه (جنوبى وادى الرمه) ووجره وغيرها . ولعل الجفاف والسيل قد أتيا على معظمها وجوها قلب ، يبرد إلى الجد فى الشتاء ويسخن إلى حد لا تكاد تطيقه الحياة فى الصيف .

هذه البيئة الطبيعية المادية قد طبعت أولئك النجديين من هلالية وغير هلالية ، بطابعها فجعلتهم كاسمهم أدنى إلى الجبليين بسطة جسم وصلابة عود وقوة شكيمة ، إلى كثير من الاستعلاء والنزوع إلى الاعتداء ، مع قدرة على الحرمان وخصوبة فى الانجاب . ليست فيهم سهولة أهل البسيط من الأرض ولا لين جانبهم ولا دماثة خلقهم ، وهم قلما يعرفون الوطنية معرفة المستقر الآمن صاحب التراث المكين . وهم أهل عاطفة تستبد بهم السورة إذا اعتقدوا فى شىء تشبثوا به آخر العمر ، وتشددوا فى الدفاع عنه ، وطلبوا إلى غيرهم أن يعتقدوا فيه راغمين .

ومن اليسير أن نلم بسيرة أهل الوبر هؤلاء ، لأنهم كانوا يعيشون فى مرحلة ثقافية لما تبلغ الحضارة التى عهدناها فى الأمم القديمة ، وكانوا متفرقين عشائر وقبائل وأحلافا أساسها الأسرة . وقد لونت ظروفهم الطبيعية حياتهم وجعلت تاريخهم

---

(١) البكرى ج ٢ ص ٦٢٧

يقوم كله أو أكثره على الصراع بينهم وبين الطبيعة . وهذه المرحلة الثقافية هى التى يعرفها العلماء بالمرحلة الرعوية التى انتهى فيها الإنسان من تأليف الأنعام واستئناسها والاعتماد عليها فى جميع شئونه .

وإن نظرة واحدة إلى حركات هذه الوحدات الاجتماعية تفسر هذه الظاهرة وتجعل حياة أولئك البدو أدخل فى علم الإنسان منها فى علم التاريخ الذى يحتفل أكثر ما يحتفل بالحضارات التى أقامتها أمم متماسكة وخلفت آثاراً تدل على أوضاعها ونظمها ودواوين تسجل أيامها وحوادثها .

أما أيام العرب التى انتقلت بالرواية الشفوية قبل التدوين والتى حفظت حروب هذه القبائل فإنها جد كثيرة وأغلبها يتحدث عن معارك ومناوشات قليلة الأهمية بالقياس إلى ما كان يقوم بين الأمم القديمة من حروب ، وكانت تدور فى جملتها على التناحر على البقاء بصورة من الصور .

وينبغى على الباحث فى أيام العرب أن يصطنع الحيطة ، فقد تضاعف عددها ؛ لأن الكثير منها سمى بأسماء البقاع والآبار والجبال وما اليها من الأماكن التى وقعت هذه الحروب عندها أو بالقرب منها ، ونتج من ذلك أن الوقعة الواحدة كانت تنسب إلى أماكن مختلفة وتسمى بأسماء متعددة .

وتتشابه وقائع هذه الأيام ويكاد ينطبق الواحد منها على سائرها . والذى كان يحدث أن أفراداً يتعاركون على موضع أو مال ، أو يستنفرون دفعاً لاهانة أو طلباً لثأر ، ثم يتسع الخلاف ويستفحل الأمر حتى يشمل القتال عشائر بأسرها أو قبائل بأكملها ، ويتشابك الجمع وتستمر الوقعة فتتدخل قبيلة محايدة أو أمير محايد حقناً للدماء ، إلى أن يعود الأمن إلى نصابه وتدفع الدية عمن قتل .

ولا بد لنا أن نشير هنا إلى الموضوع فى أوسع حدوده وأن نذكر الحقيقة التى لايرقى اليها الشك فى العصر الجاهلى ، وهى اختلاف العرب بين شماليين وجنوبيين ، أو بين عدنانيين وقحطانيين ، أو بين نزاريين أو معديين أو قيسيين ويمانيين . فقد يشك العلماء فى صحة انتساب القبائل إلى هذه الأصول العامة ، وقد يرتابون فى تفصيل هذا الخلاف ، ولكنهم لا يستطيعون إلا أن يسلموا بوجوده على الاجمال ، ولكن الأيام العدنانية القحطانية ليست بذات غناء فى الدلالة على ما نحن بسبيله من فعال القبائل التى تعنينا بخاصة .

وأيام الحلف القيسى العام كثيرة متشابكة[1] وقد تحدث عنها أبو عبيدة وعنه نقل أصحاب التواريخ والأخبار فأورد ابن عبد ربه الأيام القيسية الخالصة واعتمد النويرى عليه[2] . ومن المتعذر علينا أن نحقق هذه الأيام أو نرتبها ترتيباً زمنياً . ويكاد يكون من المستحيل أن نتعرف على الأصل الصحيح لهذه الروايات التى يشيع فيها القصص ويغلب عليها الخيال .

ومن الخير أن نقسم الأيام المتصلة بالحلف القيسى العام إلى قسمين رئيسيين ما دامت الحياة العربية البدوية تقوم — كما قلنا — على عصبية الدم والقرابة ، وما دامت نظرية الأصل المشترك هى محور وجودهم . وهذان القسمان هما : الأيام الخارجية التى تتصل بمحاربة عدو خارج عن الحلف العام . والأيام الداخلية التى تتصل بمحاربة فروع هذا الحلف ووحداته بعضهم لبعض ، مع بيان مواقف سليم وهوازن وعامر بن صعصعة وهلال من هذه الأيام .

وقد استعر الخلاف بين هذا الحلف القيسى وبين مجموعتين كبيرتين من القبائل تجتمعان وإياه فى الأرومة الأولى . فهما من عرب الشمال وتشتركان معه فى أب أعلى

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٤٤ وما بعدها .

(٢) ابن عبد ربه . العقد الفريد ج ٣ ص ٤٧ — ٩٣

من قيس . أولاهما : مجموعة تميم ، وثانيتهما : مجموعة كنانة . وكلتاهما تلتقى مع قيس فى شجرة النسب عند الياس .

وانحازت سليم وهوازن وعامر إلى أبناء عمومتهم فى مدافعة هذين العدوين ولم يشذوا عن هذا الموقف فى جميع الأيام التى أثرت عن العرب الجاهليين ، واشتهرت كل وحدة من هذه الوحدات الثلاث بأيام مشهورة عرفت بها وانتصرت فى معظمها ، واشتهر بفضلها أو اشتهرت هى بفضل سيد من السادات أو فارس من الفرسان أو شاعر من الشعراء .

فهذه سليم تلتقى بتميم يوم « ذات الاثل [1] » وتلتقى مع كنانة « يوم الكديد [2] » . ولعل أيام الفجار [3] هى أشهر أيام العرب جميعاً . وقد سميت كذلك لأنها وقعت فى الأشهر الحرم فهم خروجهم على السلم فيها فجوروا ، وكانت بين هوازن من ناحية وبين كنانة من ناحية أخرى . واشتهر بنو عامر بن صعصعة فى قتال تميم وكنانة بأيام مذكورة منها « يوم الذوبان [4] » ويوم « فيف الريح [5] » .

أما الأيام الداخلية التى انقسم فيها الحلف القيسى العام على نفسه فليس يعنينا منها ما اشتجر بين عبس وذبيان فى تلك المشاهد المعروفة بأيام « داحس والغبراء [6] » على شهرتها وتعددها وكثرة ما لا بسها وقيل فيها . ولكننا نلقى بالنا إلى ما كان بين غطفان من ناحية وبين مجموع هوازن وسليم من ناحية أخرى ، وقد تأثر هذا النزاع الدموى بما كانت عليه القبائل من حلف وانقسام فتداخلت العلاقات وأفاد

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٥٣
(٢) المصدر السابق ص ٥٥
(٣) المصدر السابق ص ٧٧ ، ٧٨
(٤) المصدر السابق ص ٥٦
(٥) المصدر السابق ص ٧٣
(٦) المصدر السابق ص ٤٩

الأحلاف والخصوم على السواء من الاحن والثارات ، فانحازت تميم إلى عدو هوازن وسليم وانقسمت غطفان على نفسها فى بعض المشاهد والأيام .

ولم تكن سليم فى هذه الأيام أقل شأناً منها فى الأيام الخارجية وهى التى اشتهر فيها أبناء الشريد وغيرهم بالفروسية والشعر فى أكثر من مشهد . وحسبنا أن نذكر لها فى هذا المقام ثلاثة أيام : « يوم حوزة الأول [١] » و « يوم حوزة الثانى [٢] » و « يوم عدنية [٣] » ويعرف كذلك بيوم ملحان .

وتتابعت الحروب بين غطفان وهوازن ، أو بعبارة أدق ، بين غطفان وعامر ، وكانت غطفان تستعلى عليها وتأخذ الخراج منها فثارت وظهرت عليها يوم النفراوات ويوم الرحرحان [٤] . ومن أيام عامر المشهورة ، ولعله أعظم أيام العرب كما يقول صاحب العقد الفريد ، هو « يوم شعب جبله [٥] » الذى استغاثت فيه جميع الاحن والسخائم ، وهو امتداد ليوم الرحرحان . بيد أن أيام عامر مع غطفان وأحلافها لم تكن نصراً كلها ، فقد هزموا « يوم الرقم [٦] » و « يوم النقأة [٧] » .

وإذا تحولنا إلى هلال الذى غلب اسمه على مجموع هذه القبائل والبطون فيما بعد ، فإننا لا نستخلص له ولا لقبيله صورة واضحة . وليس من شك فى أن الهلالية كانوا يخضعون لناموس الحياة القبلية ، وكل ما أثر عنهم لا يعدو ما أثر عن الأعراب بعامة من الانحياز إلى العصبية .

---

(١) العقد الفريد ص ٢ ٥

(٢) المصدر نفسه ص ٢ ٥

(٣) المصدر نفسه ص ٤ ،

(٤) المصدر نفسه ص ٤ ٥

(٥) المصدر نفسه ج ٣ ص ٤٦

(٦) المصدر نفسه ص ٥ ١

(٧) المصدر نفسه ص ٥ ٢

وقد دار بنو هلال فى المجال العام لهذه العصبية ، فنحن نراهم كسائر العدنانية يكرهون القحطانية وكانت العداوة بينهم وبين الأزد مشهورة لمجاورتهم إياهم . من ذلك ما ذكره صاحب الأغانى وهو يتحدث عن حاجز الأزدى أحد الشعراء الصعاليك اليمانية فى العصر الجاهلى قال : « . . . اجتاز قوم حجاج من الأزد ببنى هلال بن عامر بن صعصعة فعرفهم ضمرة بن ماعز سيد بنى هلال فقتل فيهم وسبى منهم . . . »[1] .

وانضوى بنو هلال كذلك فى الحلف القيسى وشاركوا فيما أسميناه بالأيام الخارجية ، فنحن نراهم مع بطون أخرى لهوازن وعلى رأسهم ربيعة بن أبى ظبيان الهلالى سيد عامر بن صعصعة جميعاً ، على بنى الليث من بطون كنانة وأخذوا أنعامهم ، وكان ذلك قبيل الصلح الذى تم بين قريش وكنانة من ناحية ، وبين هوازن من ناحية أخرى بوساطة وهب ابن معتب أمير بنى ثقيف من بطون هوازن .

كما انحازوا إلى أبناء عمومتهم عامر بن صعصعة فى قتال بنى نهشل من تميم يوم الوتدة أو الوتدات وقتل منهم ما يقرب من ثمانين رجلا[2] .

ولم يؤثر عن بنى هلال فى كتب التواريخ والأخبار شىء له خطره فيما يتصل بالأيام القيسية الداخلية ، ولكن الذى لا شك فيه أنهم ناصروا — متأثرين بعصبيتهم القبلية — بنى عامر وهوازن فيما استعر بينهم وبين غطفان من مشاهد وحروب .

والدارس لهذه الأيام ، وإن تعذر عليه ترتيبها ترتيباً زمنياً ، كما قدمنا ، يستطيع فى يسر إذا تأملها مستعيناً بأخبار الأعلام الذين شاركوا فيها ، شعراء وفرساناً من ناحية ، واهتدى بسيرة النبى صلوات الله عليه من ناحية أخرى ، أن يستخلص الاطار الزمنى الذى حدثت فيه هذه الأيام .

---

(١) الأغانى ج ١٢ ص ٥٢

(٢) ياقوت معجم البلدان ط القاهرة ص ١٣٢٣ ج ٨ ص ٣٩٧

فقد ذكر صخر بن عمر الشريد « يوم ذات الأثل »[١] وهو أخو الخنساء التي عاشت حتى أدركت النبي صلوات الله عليه ، وكان لها مع السيدة عائشة رضى الله عنها مجلس وحديث ، وامتد بها العمر فيما يقال إلى أيام معاوية بن أبي سفيان[٢] .

أما أيام الفجار فلم تتعد جيلين أو ثلاثة ففيها ذكر حرب بن أمية والعنابس[٣] . وفى كتب السيرة أن محمداً صلى الله عليه وسلم حضر الفجار وهو حدث لم يتجاوز الرابعة عشرة على المشهور[٤] . ويذكر الاخباريون أن وقعة « فيف الريح » كانت بعد بعث النبي صلى الله عليه وسلم بمكة وأدرك بعض رجالها الاسلام فأسلموا[٥] .

كما ورد فى يوم شعب جبله اسم سنان المرى[٦] ، وترجع شهرته إلى ولده هرم ابن سنان الذى تدخل فى حرب داحس والغبراء ، وحسم الشر المتأجج بين عبس وذبيان ، ودفع الديات عمن قتل من ماله الخاص ، وهو الذى عاش الشاعر زهير بن أبي سلمى على الاشادة به . وليس بخاف أن زهيراً هو والد كعب الذى وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم ومدحه وأخذ منه البردة المشهورة فى التاريخ[٧] . ولعل عامر ابن الطفيل هو أشهر فرسان عامر بن صعصعة واسمه أكثر الأسماء دورانا فى أيامهم . وقد وفد على رأس عامر وهوازن عام الوفود على الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة وعز عليه أن يدخل فى الاسلام وهلك فى عوده إلى قومه[٨] .

---

(١) العقد الفريد ص ٥٣

(٢) المصدر السابق ؛ ابن قتيبه . الشعر والشعراء طبعة ده غوى ليدن ١٩٠٢ ص ١٩٧

(٣) العقد الفريد ص ٧٨

(٤) العقد الفريد ج ٣ ص ٧٨ ، سيرة ابن هشام طبعة بولاق ١٣٣٢ هـ ج ١ ص ١٧٣

(٥) العقد الفريد ص ٧٣

(٦) المصدر السابق ص ٤٦

(٧) بانت سعاد . طبعة Basset الجزائر ١٩١٠ ، ص ٩٠ — ٩١ ؛ ابن قتيبة الشعر والشعراء طبعة ده غوى ليدن ١٩٠٢ (ومن العجيب أن صاحبي السيرة ابن هشام وابن اسحق لم يذكرا شيئا عن قصة هذه البردة) .

(٨) سيرة ابن هشام ج ٣٨ ص ٣٨٠ وما بعدها .

وإذن فلا يمكن أن تتعدى أيام العرب القيسية هذه كلها أوجلها قرنا واحدا قبل ولادة الدولة الاسلامية الأولى بالمدينة .

والمشخصات التي أعطيت للأبطال والشعراء في هذه الأيام لا تدل على خصوصية فردية تميز صاحبها من غيره ، ولكنها تدل على صفة من الصفات العربية البدوية ، حتى أصبحوا عندنا المثل التي تدل على هذه الصفات والمحامد الشائعة بين جميع القبائل والبطون ، شمالية وجنوبية ، تميمية وقيسية ، سلمية وهلالية ، فلا يمكن أن نستخلص منها ما يمتاز به قوم من قوم ، أو ما تتفاضل به عشيرة عن عشيرة .

ولن نكون أسعد حظاً إذا نحن استخرجنا المعبودات الخاصة بكل جماعة . فقد روى صاحب تاج العروس أن سليما كانت تعبد صنما اسمه « ضمار » [١] كان يعبده العباس بن مرداس السلمي ورهطه ، وأن هوازن عبدت صنما يدعى « جهار » [٢] . ولعل أشهر هذه المعبودات هو « ذو الخلصة » قال الكلبي : « . . . كان مروة بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج وكانت بتبالة بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة . . . وكانت تعظمها وتهدى لها خثعم وبجيلة وأزد السراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن . . . » [٣] وفي هذه العبارة الأخيرة إشارة إلى هلال على وجه الخصوص .

وأخذت هذه القبائل القيسية ، وبخاصة بنو عامر بن صعصعة ، فيما أخذ به العرب من تعظيم البيت العتيق بمكة ، بل إنهم شاركوا قريشاً ما كان لهم من حرمة ، ودخلوا معهم في شعيرتهم وسموا وإياهم « الحمس » أي الذين تحمسوا في دينهم وتشددوا

---

(١) السيد محمد مرتضى الزبيدي ، تاج العروس ج ٣ ص ٣٥٣
(٢) المصدر السابق ص ١١٥
(٣) ابن الكلبي : الأصنام ط دار الكتب المصرية ١٣٤٣ ﻫ تحقيق أحمد زكي باشا .

وكانوا لا يعظمون شيئاً من الحل كما يعظمون الحرم فتركوا الوقوف على عرفة وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحج [١] .

وليس يستخلص من هذا كله إلا أنهم كانوا كغيرهم فى وثنيتهم ، وإن فضلوا سواهم فبشىء من التشدد فى إقامة الشعائر .

وإذا انتقلنا إلى المجال اللسانى فسوف نجد أن هؤلاء الأعراب كانت لهم لهجة دارجة ، إذا شئت ، يتفاهمون بها فى حياتهم اليومية إلى جانب تلك اللهجة الفصيحة العامة التى كانت بمثابة اللغة الأدبية أو الدبلوماسية بين سائر الجماعات فى الجزيرة العربية وهى التى كانت مناط التفاهم فى المحافل والأعياد والأسواق العامة عند ما تتداعى هذه الوحدات المختلفة أبداً إلى سلم دائم أو مؤقت فى مكان حرام أو أشهر حرم ولكننا لم نصل إلى مدونات هذه اللهجة كما وصلت إلينا مدونات اللهجة الفصيحة العامة . وانحباس الجزيرة العربية عن الغرباء أمداً طويلا لم يشجع العلماء الانتروبولوجيين أو اللغويين على التقاط ما بقى فى ألسنة التجديين المحدثين من تلك اللهجة ، وكل ما يستطاع أن يتبين الآن مستمد من القراءات أو الروايات المأثورة عن اللهجات ، على قلتها بل ندرتها ، وهو يفيد أن هؤلاء الأعراب كانوا من أفصح الناس لغة [٢] وأنهم ظلوا كذلك أجيالا مما يدل على إصالة أرومتهم العربية من ناحية وقرب لهجتهم من اللغة الفصحى من ناحية أخرى . والخصائص اللسانية التى احتفل بها اللغويون والنحاة لا تخص قبيلة بعينها من تلك القبائل ولكنها شائعة بين سكان نجد أجمعين وهى خصائص صوتية ونحوية قيسية . فهم — مثلا — ينطقون الهمزة ، ولعلهم لا يزالون يفعلون ذلك إلى الآن ، مجهورة من الحلق ، وهم يميلون بها إلى العين إذا كانت فى أول الكلام وإن لم يطرد ذلك قياساً فى جميع

---

(١) ابن دريد الاشتقاق طبعة فستنفلد ١٨٥٤ ص ١٥٣

(٢) الهمدانى : صفة جزيرة العرب ص ١٣٦ وما بعدها .

الأحوال . مثال ذلك أنهم قالوا — أو يقولون — « عَنْ وعَنَّ وعُسْلِمَ وعَذَان » فى مقابل « أنْ وأنَّ وأُسْلِمَ وأَذَان » كما أن لهم جنوحاً إلى الامالة والاشمام ، فهم يقولون « نِعلم ونِنطق ونِستخرج فى مقابل « نَعلم ونَنطق ونَستخرج » وينطقون « حبلِيْ » بدلا من « حبلَى » وينطقون « هُو وهِى » (مع مد حركة الهاء وعدم تحريك الواو أو الياء) بدلا من هُوَ وهِيَ ويقولون لدنُه فى مقابل لدنِه [١] .

ومهما يكن من شيء فان القبائل العربية البدوية كانت تمر فى تلك الفترة بما يشبه الانتقال من طور إلى طور . أو بتعبير آخر كانت فى ختام مرحلة التفرق تتداعى ، واعية أو غير واعية ، إلى الوحدة حتى إذا تبلورت نواة الدولة العربية الأولى فى المدينة كانت قبائل سليم وهوازن وعامر قد كثر عديدها واتسع نفوذها واشتد خطرها فأخذت تناضل عن استقلالها . وسنرى بعد ماذا تم بين هاتين القوتين ، التى تدفع إحداها إلى التكثر وتدفع الأخرى إلى التوحد .

(١) للتوسع فى هذا الموضوع أنظر . سيبويه ، طبعة ترنبرج ، ج ٢ ص ١٦٨ وما بعدها ، و ٢٧٥ وما بعدها ؛ الزمخشرى . المفصل ، طبعة بروش ص ٥٢٧ ، ٥٨٠ ، ٦٤٣ ؛ السيوطى ، المزهر ص ١٠٤ ، ١٠٩

الباب الثانى

فى العصر الإسلامى

مرت الوحدات القبلية العربية بالطور نفسه الذى مرت به سائر الحضارات القديمة فى نشأتها الأولى : ولم تكن القرى العربية الكبيرة كمكة والمدينة ، وحدات مدنية كعواصم الأمم أو الدول المستقرة . ولكنها كانت إلى ذلك العهد بدوية المظهر قبلية الطابع ، يتألف المجتمع فيها من أحياء أبوية القوام تربط بينها أسباب من قرابة الدم أو الجوار أو الولاء . وهذا النظام هو الذى كان يحدد كل مايصدر عنها فى حرب أو سلم بمجتمعة أو مفرقة ، وهو الذى كان يرسم أخلاقها ويكيف سلوك أفرادها . وهى فى هذا كله لا تختلف عن النظام القبلى فى شىء وإن كانت تدل دلالة واضحة على بوادر التحول فى المجتمع العربى من الجاهلية الغليظة القاسية المرتحلة ، إلى الحضارة الآخذة بأطراف من النعيم والاستقرار .

ونحن إذا أمعنا النظر فى تذبذب الجماعات العربية من التوحيد والشرك مع ما قدمنا من افتقار المعبودات العربية إلى الدلالات الطوتمية ، أو تأملنا فيما كانت تجيش به نفوس بعضهم من الرغبة الملحة فى بعث رسول عربى منها ، فانه لا يداخلنا الشك فى أن النزوع العام إلى التوحيد كان قد اتخذ سبيله إلى الظهور ، وأخذ يقوى شيئاً فشيئاً لا يترك فرصة تمر إلا اقتنصها تحقيقاً لهذه الغاية التى تنشدها النفوس الواعية وغير الواعية على السواء أحياناً . وهذه سمة جديدة من سمات التحول ، لا من البداوة إلى الاستقرار فحسب ، ولكن من الفرقة إلى التوحد والاندماج أيضاً .

والقرآن الكريم ، وهو الذى ينبغى أن ينتفع الباحث بما فيه من تطور الجماعات

العربية ، يجلو لنا هذا التحول ويفسره ويتتبع مداه ومراحله ، فقد أطلق لفظ « الأعراب » على الجماعات المتبدية ليفرق بينها وبين الجماعات المقيمة والمستقرة ، ورتبهم على درجات ثلاث من حيث الالمام بالقرى أو مجاورتها أو الايغال فى البادية . وهى تدل كما ترى على درجات التطور الجماعى . وإذا كان القرآن الكريم قد احتفل بموقف هؤلاء الأعراب من الدين الجديد ومقاومتهم له ، فان ذلك يعنى بالبداهة موقفهم من الدولة ومقاومتهم لها . والصورة المجملة التى أوردها ، وإن رسمت الجماعة الجاهلية التى لما تدخل فى الاسلام ، فانها توضح الملامح العامة لنضال هذه القبائل فى سبيل الاحتفاظ بقوامها المتبلور من قديم .

وهكذا تكوّنت النواة العربية القومية الأولى فى المدينة — كما يقول أصحاب الطبيعيات — وبدأ نشاطها وشرعت توطد أركانها فى الداخل وتمد سلطانها فى الخارج . وكان من الطبيعى أن تناصبها الوحدات القبلية ، المتحالفة وغير المتحالفة ، العداء دفاعاً عن ذاتيتها وذياداً عن استقلالها واحتفاظاً باستعلائها . والتوحد لا يمكن أن يتم سلماً واتفاقاً ، وهو إذا تم فأى الجماعات تسود وأى الجماعات تساد !! وهذه قيس عيلان تمد رواقها على القبائل ذوات العدد لا يمكن أن تسلم أو تسلّم إلا مكرهة وقد كانت غضفان المرهوبة الجانب ، وسليم المشهود لها بالشجاعة والاقدام ، جارتين شديدتى المراس على هذه الدولة الوليدة ، والمساس باحداها قد يجر قيساً كلها إلى الحرب ، وفيها هوازن ، وبينها وبين قريش الموتورة صلات وأحلاف ، والمهاجرون قلة والأنصار من الأوس والخزرج يباعد بينهم وبين النزارية جميعاً نسب متوغل فى القدم وتفصلهم عنهم المصلحة ووشائج القربى .

ويبدأ الصراع بين هاتين القوتين ضعيفاً أول الأمر ، ولعل كل منهما كانت تترقب فى حذر . واصطدمت الدولة وهى تقوم بوظائفها فى التدعيم والتوسع جميعاً

بسليم ، فأخذت تنوشها فى حيطة وأناة ولما يمض على قيامها عام و بعض عام . ولكن سليما على عزتها وقدرتها وغناها كانت تؤثر العافية ، ففى شوال من السنة الثانية للهجرة (وفى رواية أخرى فى المحرم من السنة الثالثة) بلغ رسول الله اجتماع بنى سليم على ماء لهم يقال له « الكدر » فاستخلف على المدينة ابن أم مكتوم [١] وجعل اللواء لعلى بن أبى طالب وسار اليهم ولكنه لم يلق كيدا فعاد ومعه النعم والرعاء [٢] . ولم تكن الدولة لتقنع بهذا القدر من الغنيمة وهى تدرك أن خصومها لن يسكتوا عنها ولا بد لها من الظهور عليهم . فلم يكد رسول الله صلى الله عليه وسلم يستقر فى المدينة بعد هذه المناوشة حتى عاد فأرسل غالب بن عبد الله الليثى فى سرية أخرى اليهم فقتل فيهم وغنم منهم . وفى جمادى الأولى من السنة الثالثة أعاد الكرة عليهم لما بلغه من تجمعهم بمحران عند الفرع فاستشعروا الخوف وخشوا على أموالهم فخلوا له الطريق ولم يلق منهم كذلك كيدا [٣] .

ولكن النزعة الاعرابية — إذا صح هذا التعبير — أخذت تنتفز لأيام مشهورة ففى مطلع السنة الرابعة ، قدم المدينة أبو براء بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة سيد بنى عامر بن صعصعة ، فطلب اليه النبى صلى الله عليه وسلم أن يدخل فى الاسلام فرفض واقترح عليه أن يبعث نفراً إلى أهل نجد فلعلهم أن يستجيبوا له ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين رجلا فساروا حتى نزلوا ببئر معونة من أرض بنى عامر وحرة بنى سليم فاستصرخ عامر بن الطفيل آل عامر فلم يروا أن يخفروا بأبى براء — على مألوف العرب — وقد أجار رسل النبى ، فاستصرخ بنى سليم ، عصية ورعل وزكوان ، فأجابوه وأحاطوا بالمسلمين وقتلوهم عن آخرهم .

---

(١) المقريزى : أمتاع الأسماع القاهرة ١٩٤١ ص ١١١ ، ١١٢ ؛ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣١

(٢) سيرة ابن هشام المصدر السابق .

(٣) ابن هشام (السيرة) ج ٢ ص ٣٣٣ ؛ المقريزى ص ١١٢

وليس يقف جهد الباحث فى تطور الجماعات وهو يتتبع هذا النضال على مشاهد القتل والقتال ، فان من الأخبار السلمية ما هو أقوى من تلك دلالة . مثال ذلك زواج النبى بزينب بنت خزيمة المعروفة بأم المساكين فى رمضان من السنة الرابعة للهجرة[1] فنحن نعلم أن النبى لم يكن يقدم على الزواج لذاته فحسب ، وإنما كان يقدم عليه لغايات أخرى أبعد منه مدى وما نظن أنه بنى بزينب هذه لمجرد الزواج ، وإنما بنى بها ليتألف قلوب هؤلاء الأعراب الجفاة . وكتب السيرة وتراجم الصحابة تقطع بأنها من هلال . فهل معنى هذا أن هلالا قد تكاثرت حتى أصبح لها من الخطر ما لسليم أو عامر . . أو أن رياسة عامر قد انتهت وقتذاك إلى أمير من هلال . . مهما يكن الأمر فان الروايات والأخبار التى بين أيدينا لا تقطع بشىء فى هذا السبيل ، ولو أننا سنرى بعد ما لهذا الحادث من أثر .

وكان من الطبيعى أن ينضم أفراد من تلك الجماعات المتبدية إلى الدولة النظامية وأن يزداد عددهم على الأيام : ولم تكن تلك القبائل لتستطيع أن تخلعهم من زعمتها ، فقد قوى شأنهم بالدولة كما قويت الدولة بهم حتى أصبحوا بمثابة رءوس الحراب المصوبة من الدولة إلى قبائلهم . من ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل فى غضون السنة السابعة بعد أن فرغ من عمرة القضاء ، ابن أبى العوجاء السلمى إلى قومه بنى سليم ، فما كان منهم ، وهم الذين خفروا بالجوار فى يوم سابق ، إلا أن يتجاهلوا ما بينه وبينهم من روابط القربى فلقوه بما يكره وأصيب هو وأصحابه وقيل بل نجا وأصيب أصحابه[2] .

وكلما قويت الدولة ، أو قل كلما قوى الشعور بالوحدة ، زاد عدد الأفراد الذين ينضوون تحت لوائها . ثم اتخذ هذا الانضمام مظهراً آخر ، فقد خضع لسلطانها كثير

---

(١) المقريزى . امتاع الأسماع ص ١١٣

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ١٧٤ ، « المقريزى » امتاع الأسماع ص ٣٤١

من العشائر ذوات المنعة . فرأت سليم على ما لها من العزة وما بينها وبين قريش من صلة أن من الحكمة وسداد الرأى أن تكف عن لجاج الخصومة وأن تتقوى بالنبى صلوات الله عليه وأن تسهم فى غزواته ، فكان لها ما أرادت وشاركت فى أعظم هذه الغزوات قدراً وأعلاها شأناً وهى فتح مكة ، وذلك فى رمضان من السنة الثامنة للهجرة [١] . وظل بنو سليم على ولائهم للدولة العربية حتى أنهم حاربوا فى صفوفها ضد أخوتهم من بنى هوازن ، ولعلهم أدركوا أن مقاومة هوازن هى المرحلة الأخيرة فى سبيل غلبة الدولة الجديدة على الجزيرة العربية كلها .

ولما كان منهجنا فى تتبع هذا التطور اجتماعياً خالصاً لا صلة له بالأخلاق إلا من حيث دلالتها على التحول ، فليس من شأننا أن نستهجن أولا نستهجن عملا يصدر عن هذه الجماعة أو تلك . وما رأيناه من خروج سليم على العرف القبلى القديم الذى كانت له وظيفة إيجابية فى المحافظة على كيان البلورة الاجتماعية ، إنما كان شارة من شارات الضعف فى الروح القبلية يؤذن بالانتقال إلى نظام آخر ، وقد ساعد سليما على أن تخطو هذه الخطوة الأخيرة خلقها العملى الذى اكتسبته بالاتجار إيثاراً للمنفعة على كل شىء آخر . وتصرفها فى كل مرة هو التصرف الذى تملى به بواعث الدفاع عن الذات والافادة من الظروف فى وقت معاً .

ومن الدلائل على تصدع تلك الروح القبلية ، العصبية إذا شئت ، أن أفواج المنتظرين فى الدولة كانوا يقودون جنودها إلى مواطن أخوتهم وأبناء عمومتهم وذوى قرباهم ، وقد مر بنا أن النبى صلى الله عليه وسلم تزوج من هلال فأثمر هذا الزواج بعض ثمرته ، ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما بعث بعمر بن الخطاب فى ثلاثين رجلا إلى عجز هوازن بتربة ، كان دليله من بنى هلال ، وهم من بطون

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٣٣

هوازن كما قدمنا فى الفصل السابق ، وكانوا يسيرون الليل ويكمنون النهار ولكن هوازن ، وهم من أعرق الأعراب جاهلية ، ما أن سمعوا بخبر هذه السرية على قلة عددها ، حتى هربوا [1] ، مما يدل على أن الدولة كانت قد قويت وذاع صيتها بين البدو واشتد خطرها على القبائل .

ولا حاجة بنا إلى القول أن الدولة العربية الجديدة أحلت الدين محل العصبية فى بنائها الاجتماعى ، وهو دين يحارب الشرك الطوطمى وغير الطوطمى ، ويقسم الناس إلى آخذ به ومنكر له ، ولكن العصبية المنهزمة لابد لها من ضربة تقضى عليها القضاء الأخير ، وهى التى تقوى ويشتد تأثيرها كلما قوى الخطر على كيان الوحدة الاجتماعية القائمة بها ، بل إنها لتلتمس القربى فى الوحدات الأخرى عن طريق جد أعلى من جدها فى شجرة النسب . وهكذا تداعت هذه الوحدات الاجتماعية إلى الوقوف فى وجه هذا الخطر الداهم . ولم يعد أمام الحياة العربية إلا واحد من طريقين فإما الابقاء على القبلية فى صورتها المتبلورة وإما إذابتها فى الدولة النامية .

وأحدث فتح مكة دوياً هائلا فى الجزيرة العربية كلها وتحفزت الروح القبلية القديمة للدفاع عن ذاتيتها وسبقت هوازن الجاهلية غيرها فى هذا المضمار ، وقد أدركت أن استقلالها يوشك أن يزول ، فأجمعت أمرها على الزحف إلى مكة تحت إمرة مالك بن عوف ، واجتمعت مع هوازن ثقيف كلها ، وهم من سليم فى المشهور ، ونضر وجشم كلها وسعد بن بكر وناس من بنى هلال ، وهم قليل [2] . ولعل زواج النبى منهم قد ألف قلوبهم كما سبق أن قدمنا ، فأقعد أكثرهم عن قتاله ، كما غاب عنها فلم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب . وأخذ الجمع بنصيحة أميرهم فساقوا معهم نساءهم وأطفالهم وأموالهم وهذا يشير إشارة قاطعة إلى أنهم إنما كانوا

---

(١) الطبرى . طبعة ده غوى ، ج ١ ص ١٥٩١ ؛ ابن الأثير الكامل ج ٢ ص ١٩٦

(٢) الطبرى . طبعة ده غوى ، ج ١ ص ١٦٥٥ ؛ سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٦٦ ، ٨٦٤

يدافعون عن الذاتية الجماعية . ولعلنا لو أحصينا جند الدولة الذين سار بهم النبي صلى الله عليه وسلم لملاقاة هذه الأحزاب وهم يبلغون عشرة آلاف رجل فى المشهور ، لأدركنا مدى ما بلغته الدولة من قوة وسلطان . ولننظر فى أحداث هذا اليوم المشهور قبل أن نلم بالنتيجة التى أسفر عنها . لقد التقى الجمعان عند حنين من أودية تهامة ، فكرت هوازن المستبسلة فى يأس على المسلمين وفرقتهم ، وكادت النزعة القبلية تعلن انتصارها على النظام الجديد ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبت فى نفر من أصحابه المهاجرين والأنصار وأهل بيته منهم ، أبو بكر وعمر وعلى والعباس وأسامة بن زيد وأبو سفيان بن حرب . وكانت معركة حياة أو موت فحمى الوطيس وانجلت الوقعة عن هزيمة هوازن وسقط عدد من نسائهم وأبنائهم وأموالهم فى قبضة المسلمين ، فجمعت فى الجعرانة وانسحبت فلولهم إلى أوطاس فتبعهم أبو موسى الأشعرى حتى شتت شملهم فى شعاب الجبال .

ولم تسكت هذه القبلية العاتية عن القتال وفيها رمق ، فقد تحصنت هوازن فى الطائف ، وهى معقل منيع ، فحاصرتها الدولة النظامية تحت إمرة النبى صلى الله عليه وسلم نيفاً وعشرين يوماً يمنعهم من النقلة أو البيع ، وما أن عاد إلى الجعرانة حتى لقى وفداً من هوازن يبايعونه عن القبيلة ويدخلون فى السلم الذى دخل فيه غيرهم ، وتم الصلح واختير أميرهم عامر بن عوف عاملا عليهم .

والذى لا يشك فيه الباحثون الاجتماعيون أن الدولة الجديدة لم تبتدع نظاما لم يكن له من قبل وجود ، ولم تقض على السنن الموروثة كلها أو حتى جلها . ولم تستحدث تقاليد جديدة مغايرة كل المغايرة للتقاليد القديمة . ولكنها عدلت فى النظم القائمة بما يلائم أغراضها وأهدافها ، وحورت الكيان الجماعى بعض التحوير ، وكسرت من شر العصبية ، ولكنها لم تقض عليها ، فقد بقيت الجماعة أبوية هيراركية ، كما يقولون فى المصطلح الاجتماعى ، وإن أنمحت الفروق فتداخلت الطبقات . ولا تثريب علينا

إذا نحن رغبنا عن التفسير الدينى للتاريخ ، وهو التفسير الذى يقول إن الجاهلية شىء والاسلام شىء آخر ، وقد يكون هذا صحيحاً من وجهة النظر الاعتقادية ولكنه من وجهة النظر الاجتماعية مبالغة لا سند لها من الواقع التاريخى فثمة جيل أو أجيال من الجاهلية دخلت فى الاسلام وانتظمتها الدولة فما استطاعت أن تبرأ من عصبياتها الأولى . والجماعات فى تطورها كصور الحياة الفردية سواء بسواء ، فيها سمات تدل على الطور القديم وسمات تشير إلى الطور الجديد ولا يمكن أن تتعرض صفة من صفاتها إلا بانقراض الوظيفة الدافعة عليها فى أحقاب متعاقبة متطاولة . ومن ثم فقد ظلت الروح القبلية كامنة فى أضواء هذا المجتمع تضعف وتبهت وتكاد تنمحى خلال العصور إذا لم تجد ما يوقظها أو يذكيها .

ولما قبض رسول الله عليه الصلاة والسلام بعثت العصبية الجاهلية ، ولكن فى غير قوتها الأولى ، فقد فقدت جانباً كبيراً من الوظائف التى كانت تقوم بها فى الكيان الاجتماعى واتخذ هذا البعث صورة الحروب المندلعة وهى التى سميت بهذا المصطلح الدال على الرجعية « حروب الردة » وقد شملت الجزيرة العربية كلها أو جلها وشاركت فيها قيس علان وكانت غطفان أشدها تحمساً وحاولت فتح المدينة أكثر من مرة وتلتها سليم .

أما بنو عامر بن صعصعة فقد كانوا يقدمون إلى الردة رجلا ويؤخرون أخرى يتربصون على من تكون الدائرة . ونشب القتال بين سلطان الدولة الحريصة على الوحدة والنظام وبين العصبيات القبلية النزاعة إلى التحرر عند بئر بزاخه ، بيد أن الجاهلية كان قد ذهب ريحها فهزم المرتدون وتبعتهم فلولهم عند الفجاءة [1] . وهكذا دخلت قبائل وسط الجزيرة فيما خرجت منه وأصبح حمس الجاهلية حمساً فى الاسلام .

(١) الطبرى ج ١ ص ١٨٧٠ ، ١٨٨٥ ، ١٨٨٩ ، ١٨٩٨ ؛ ابن الاثير ج ٢ ص ٢٦٤

وإذا قال الباحث الاجتماعي إن الأمة العربية قد تكونت أو كادت في ذلك العهد، فانه يعبر عن الحقيقة الواقعة في غير إسراف أو غلو، ذلك لأن هذه الأمة كسائر الأمم، كانت تتألف وقتذاك من عناصر لم يتم امتزاجها فقد انضمت القبائل بعضها إلى بعض لا في صورة الأحلاف أو الأحزاب، ولكن في صورة الأقوام، حتى لنستطيع أن نقول إن العصبية القبلية قد نمت إلى عصبية قومية في أطواء النفس العربية الجماعية وأخذت تقوم بوظائفها من التحذير والحماية والمحافظة على السمات الأصلية. وستحتفظ هذه المجموعات القومية الكبيرة بالسمات القديمة معدلة ومكبرة مما يقطع بأن المجتمع ينتقل من المرحلة القبلية إلى المرحلة القومية.

واستتبع هذا التوسع الجماعي توسعاً بكافته في المكان، وإن شئت فقل — كما يقول المؤرخون — انتقلت الدولة إلى المرحلة الامبراطورية وشرعت تحارب دولتي الروم والفرس وتنتقص من رقعتيهما، ونحن نرجو أن يتتبع بعض الباحثين الوحدات القديمة وخطواتها في تلك الفتوح الاسلامية الأولى [1]. وحسبنا أن نعرف أن هذه الجماعة أو تلك قد ساهمت فيها وأن بعض أحيائها قد استقر هنا أو هناك. من ذلك وهذا ما يعنينا في بحثنا هذا بخاصة، أن فرقا من قيس عيلان شاركت في هذا التوسع طلباً للفيء والغنيمة تحت إمرة خالد بن الوليد والمثنى الشيباني وسعد بن أبي وقاص.

وشغل الناس عن التوسع والفتح بالرياسة لمن تكون وكيف تكون، وثارت الفتنة الكبرى بين علي ومعاوية فظهرت العصبية القومية وكانت أقوى من القبلية وأشد بأساً، تنثر بذور الفرقة بين الأقوام غير المتجانسة التي تتألف منها الأمة العربية، وكان من الطبيعي أن تنضم قيس إلى علي وأن تبلي البلاء الحسن يوم الجمل عام (٣٦ هـ) كما يعود إليهم بعض الفضل يوم صفين (عام ٣٧ هـ) [2].

(١) الطبري، طبعة دي غوي، ج ١ ص ٢٢١٩ وما بعدها؛ ابن الأثير ج ١ ص ٣٤٧

(٢) أبو حنيفة الدينوري، طبعة القاهرة ١٣٣٠ هـ، ج ١ ص ١٤٨ وما بعدها و ١٥٦ وما بعدها؛ ابن الأثير ج ٣ ص ١٨٩

وتحول الأمة العربية من البيعة المطلقة إلى البيعة المقيدة فى بيت واحد ، سمة من سمات تمام الانتقال من القبلية إلى القومية ؛ ونحن نطرح جانباً الفقه الدستورى وما فيه من أنظار وأحكام ، فما من صورة من صور الحكم تبقى فى جماعة من الجماعات أمداً ما إلا وفيها ملاءمة لهذه الجماعة ودلالة صريحة أو مضمرة على الطور الجماعى الذى تمر به ، وقد كانت الأمة العربية تشبه إلى حد كبير — كما ذهب إلى ذلك بعض المؤرخين [1] — الأمة الرومانية فى تحولها إلى القيصرية الوراثية ولا يعزب عن البال أن هذه البيعة المقيدة كانت تساير النظام الأبوى الذى لم يبرأ منه الكيان الاجتماعى العربى . وكل ما سوف يقع من خلاف حول الحكم ليس مصدره الملاءمة أو عدمها ، وإنما مصدره عدم امتزاج العناصر التى تتألف منها الأمة فحسب .

وأول ما نلاحظه فى أحداث هذا العهد أن زمراً من القيسية نقلوا ديارهم إبان الفتوح — كما لم يفعل من قبل — ناحية الشمال وبخاصة إلى الشام وقويت شوكتهم حتى أصبحوا عاملا سياسياً وحربياً له خطره وجعلتهم قوميتهم الشمالية ، وهم المضرية النزارية ، خصوما ألداء لجماعة كلب الجنوبية اليمانية ، وهى إحدى بطون قضاعة فيما يقول النسابة وكانت منازلها بين مآب وتدمر [2] . وقد كان الخلفاء من بنى أمية يعتمدون على الكلبية حيناً وعلى القيسية حيناً آخر تبعاً لروابط الصهر والزواج بين البيت الأموى من ناحية وبين هاتين الجماعتين المتنازعتين من ناحية أخرى .

ويجب علينا أن نتحرز بعض الشىء فى القول بتحول الجماعات العربية من القبلية إلى القومية ، ذلك لأن هذا القول لا ينسحب إلا على الصورة الاجتماعية العامة المتصلة بأمهات الأحداث التاريخية ، وما من شك فى أن بعض الوحدات كثيراً ما تتخلف عن الركب ، فتنزوى فى ديارها الأولى أو تتخذ لها ديارا أخرى وتعيش

---

(١) أحمد فريد رفاعى ، عصر المأمون ، ج ١ ص ١٥ وما بعدها .

(٢) The Ency. of Islam : H. Lammens المجلد الثانى ص ٦٨٨ ، ٦٨٩

حياتها المقيدة الضيقة وتمر بالأطوار التى مرت بها سابقاتها التى أصبحت عنصراً من عناصر الأمة ، محتفظة بسماتها الأصلية القريبة من الجاهلية . فهذه جماعات من قيس لا تظعن إلى الشام أو إلى العراق وتقيم فى نجد فى منازلها أو فى منازل القبائل التى رحلت ، وتلك جماعات أخرى تهاجر إلى الشام ثم تتشبث ببيئة تشبه بيئتها ، وثمة جماعة ثالثة تنزل صحراء مصر الشرقية على تخوم الوادى الأخضر . وهذه الجماعات وأمثالها تعيش لا تتحول عن بداوتها ، تكره الاستقرار وتخاصم النظام وتحارب الدولة بالعصبية القبلية نفسها التى كان يحارب بها أجداد لها من قبل .

وقد استطاع معاوية بحلمه وطول أناته وكياسته السياسية أن يستميل أشياخ القبائل وأن يسكن من حدة العصبية إقراراً للأمن وتوطيداً للنظام أولا ، ثم جمع كلمتهم على قبول الانتقال من البيعة العامة المطلقة إلى البيعة المقيدة فى البيت الأموى ثانياً وقد وفق فى غايته . فنحن نراه يترضى من القيسية قبيلة سليم الشموس لامتداد ديارها على طريق الحاج بين مكة والمدينة ، كما انتخب من عماله واحداً من رؤسائهم هو أبو الأعور السلمى وقربه اليه وجعله موضع ثقته . كما نراه من الناحية الأخرى قد نال تأييد قبيلة كلب العظيمة فى الشام وكان قد تزوج من ابنة بحدل بن أنيف الكلبية وهى أم ولده يزيد [١] .

وظلت القبائل القيسية هادئة إلى حد ما أيام معاوية وابنه يزيد ولكنهم انتهزوا فرصة التقاقل فى البيت السفيانى فشقوا عصا الطاعة على معاوية بن يزيد وكان حدثاً حتى إذا استقرت الأمور لمروان بن عبد الحكم الممثل لفرع آخر من فروع البيت الأموى انضمت القبائل القيسية كلها إلى عبد الله بن الزبير المطالب بالخلافة .

وفى عام ٦٤ هـ حارب بنو سليم وعامر وغطفان وكلهم من قيس تحت راية الضحاك الفهرى الشيبانى عند مرج راهط فى غوطة دمشق ودارت الدائرة

(١) Thy Ency. of Islan : H. Lamusans المجلد الثانى ص ٦٨٧ أ ، ٦٨٨ ب

على الزبيريين وتم النصر لمروان الذى كان يتألف جيشه من بنى كلب وغيرهم من القبائل اليمنية [١] .

ولم تكبح هذه الهزيمة من جماح القبائل القيسية فظلوا على ولائهم لابن الزبير وأذكت العصبية عداوتهم وقويت شوكتهم فى العراق تحت إمرة زفر بن الحارث العامرى ونائبه عمير بن الحباب السلمى . ولم يرجعوا إلى طاعة الخلافة الأموية إلا أيام عبد الملك بن مروان بعد حصار طويل ضرب على معاقلهم فى قرقيسياء ورأس العين [٢] .

ونحن نجد عمير بن الحباب على رأس القيسية الذين حاربوا الشيعة ، وابراهيم الأشتر يقودهم على ضفاف الخازر وهو من فروع الزاب [٣] . ولم يكن دخولهم فى طاعة الدولة برئياً خالصاً ، فقد ألفوا جانباً من الجيش الأموى تحت إمرة عبيد الله ابن زياد فصبروا إلى أن حمى وطيس القتال وتركوا المعمعة انتقاماً ليوم مرج راهط [٤] .

ولم تخبُ خصومة القيسية لبنى كلب على الرغم من غلبة الأمويين عليهم . وذكت نيرانها فى أيام مشهورة متتالية تشبه إلى حد كبير أيام الجاهلية ، وكان مسرحها فى السماوة وهى الصحراء الممتدة بين الشام والعراق وفيها ظهروا على عدوهم واضطروا الجانب الشمالى الشرقى من بنى كلب إلى النقلة إلى غور فلسطين .

وحدث عندما نزل عمير بن الحباب مع جنده من بنى سليم على الخابور الأعظم ،

---

(١) المسعودى . مروج الذهب ج ٥ ص ٢٠١ ، ابن الأثير ج ٤ ص ١٢٣

(٢) الطبرى ، ج ٢ ص ٦٤٣ ، ٧٧٧ ، ابن الأثير ج ٤ ص ١٨٨ ، ١٩٢ ، ٢٤٢ ، ٢٥٩

(٣) أبو حنيفه الدينورى ، الأخبار الطوال ص ٣٠١ وما بعدها ، الطبرى ج ٢ ص ٧٠٨ وما بعدها ، ابن الأثير ج ٤ ص ٢١ وما بعدها ، ياقوت معجم البلدان ج ٣ ص ٣٨٨

(٤) أبو حنيفه الدينورى ، الأخبار الطوال ص ٣٠١ وما بعدها ، الطبرى ج ٢ ص ٧٠٨ وما بعدها ، ابن الأثير ج ٤ ص ٢١٥ وما بعدها ، المسعودى التنبيه ص ٣١٢

ما لم يكن فى الحسبان ، فقد تصدى لهم نصارى بنى تغلب . وكانوا يعيشون فى الجانب الشرقى من العراق ، ونشبت بين الفريقين حرب ضروس على الخابور والبليخ [١] والثرثار [٢] ومنطقة دجلة . ودارت الدائرة على بنى تغلب فزادتهم ضعفاً وأشهر هذه الأيام الخشالك [٣] وفيه قتل عمير ، ويوم سنجار [٤] ويوم جبل البشر [٥] .

ورأى عبد الملك بن مروان بثاقب فكره أن الأمر لن يستتب إلا إذا حفظ التوازن فى الدولة بين التأييد والمعارضة وارتفع عن الحزبية والعصبية فاستدعى زفر بن الحارث ثم أبناءه من بعده إلى قصبة الخلافة فى دمشق وأدناهم وكرمهم ، كما تزوج من قيسية أنجبت له ، فيمن أنجبت ، اثنين توليا الأمر بعده هما الوليد وسليمان .

وكسرت هذه السياسة الجديدة من شره العصبية القيسية ، ولو فى ظاهر الأمر على الأقل ، فقد كان الوليد بن عبد الملك قيسياً من قمة رأسه إلى أخمص قدميه . ولكنه لم يتورط فى التحزب لهم إلى حد يغضب بنى كلب ، وهم عصب الدولة وعمودها الفقرى . أما سليمان فلم ينس التقاليد الأموية ، فقد قرب يزيد بن المهلب الأزدى اليمانى ، إلا أنه كان يؤثر مصلحة الدولة على مصالح القبائل والأحزاب .

ويعود الفضل فى نجاح هذه السياسة إلى رجل من القيسية كان اختيار عبد الملك ابن مروان له توفيقاً ليس كمثله توفيق ، هو الحجاج بن يوسف الثقفى [٦] .

---

(١) النقائض ، بين جرير والفرزدق ، ليدن ١٩٠٥ نشرة بيفان ج ٣ ص ٨٩٩ ، ابن الأثير ج ٤ ص ٢٥٨

(٢) النقائض ، ج ٣ ص ٣٧٣ ، ٤٠٠ ، ٥٠٨ ، ابن الأثير ج ٤ ص ٢٥٥

(٣) النقائض ، ج ٣ ص ٣٧٣ ، ٤٠٠ ، ٥٠٨ (وهو يذكره باسم « يوم سنجار ») .

(٤) النقائض ، ج ١ ص ٣٧٣ ، ٤٠٠ ، ٥٠٨

(٥) ياقوت ، ج ١ ص ٣٦٢ ، البكرى ص ٩٧٩ ، النقائض ، ج ١ ص ٤٠١ ، ٥٠٨ ، ٨٩٩ ، ٩٠٣ ، ابن الأثير ج ٤ ص ٢٦١

(٦) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٣٠٣

ولعل الخلاف على تقييف ومكانها من القبائل العربية يعود إلى ما ناله هذا الرجل من الحظوة والمقدرة ، وكانت سياسة الحجاج التى وطد بها سلطان الدولة حتى كاد يقضى على العصبية القبلية ، أن يحول العمال عن عصبياتهم القديمة وتأثيرهم فى القبائل واعتزازهم بأنصارهم ، إلى موظفين تابعين للدولة لا غير . وأن يوجه القبائل إلى الثغور توسيعاً لرقعة الملك وتخلصاً من أذاهم فى آن .

وكان القيسية كما يتوقع منهم أنصاراً لرجل الدولة الحجاج ، وكيف لا يكونون كذلك وهم يمدونه سلمياً ، وظلوا على هدوئهم أيام عمر بن عبد العزيز الذى لم يقف جهده على التوفيق بين مختلف القبائل والأحزاب ، بل تعدى ذلك إلى محاولة التسوية بين العرب والموالى [1] ، مما ساعد على إدماج القاهرين فى المقهورين .

ولم تقض هذه الجهود على العصبية القبلية قضاء تاماً ، بل لم تذهب الفتوح المستمرة شرقاً وغرباً بريحها ولم تتغلب عليها النزعة العالمية التى اتجهت اليها الدولة بعد أن دخلت فيها عناصر جديدة ليست عربية كالفرس والترك والبربر ، ذلك أن يزيد بن عبد الملك كان مرغماً على أن يلقى بنفسه بين أحضان هذه العصبية التى لم تبرأ منها الدولة الأموية فى يوم من أيامها ، فولى وجهه شطر القيسية طلباً لنصرتهم فى محاربة بنى المهلب الأزدى [2] . ونتج عن هذا أن جنحت الحكومة التى ارتفعت أيام عبد الملك فوق الأحزاب حتى أصبحت حزبية قيسية صارخة

وجاء هشام بن عبد الملك وكان حازماً فطناً فأراد أن يفيد من تجارب أسلافه وبخاصة تجاريب أبيه فى العمل على التوازن بين الأحزاب ، فعزل عمر بن هبيرة الفزارى القيسى ، وكان أخوه يزيد قد استعمله على العراق ونصب مكانه

---

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٣ وما بعدها .
(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٩

خالد بن عبد الله القسرى اليمانى [١] . ولكن الحزب القيسى كان قد قوى واشتد سلطانه فرأى هشام مرغماً أن يعزل خالداً على إخلاصه وكفاءته ، وأن يعين مكانه يوسف ابن عمر ، وهو ثقفى قيسى قريب للحجاج [٢] .

وأراد هشام فى الوقت نفسه أن يخفف من وطأة هؤلاء الأعراب القيسية فاستجاب لعامله فى مصر ونقل جماعة من بنى سليم اليها وأوصاه ألا ينزلهم فى الفسطاط أو أرضها اتقاء لشغبهم فصدع لأمره وقيل إنه أنزل خمسمائة منهم بالحوف الشرقى من ديار مصر ، وكانت تنزل هناك بطون من بنى عامر وهوازن ، وكانت بلبيس قصبة العمل الذى يحتلونه . وقد بذل الوالى الأموى جهداً كبيراً فى تحويلهم من البداوة إلى الاستقرار [٣] .

ولما مات هشام كانت الخلافة الأموية فى أوجها فقد استمرت الفتوح طوال حكمه على النهج القديم الشامل وامتدت فى الغرب على الرغم من ثورة البربر العظيمة عام ١١٣ هـ [٤] . كما امتدت فى الشرق واتسعت رقعة الامبراطورية حتى بلغت بلاد الغال فى أوربة . ويكاد المرء لا يصدق أن هذا البناء الشامخ الذى بنى فى أجيال ، يتقوض فى زمن قصير ويكون العامل فى بنائه هو العامل على هدمه ، وهو العصبية .

ولسنا نذهب مذاهب المؤرخين الذين جعلوا خلاعة الوليد بن يزيد ومجونه هما الباعث على قلب نظام الدولة وتقويض أركانها [٥] ذلك لأن قليلا من إنعام النظر يهدينا إلى السبب الحقيقى فى ضعف الدولة وانهيارها فقد ألقى الوليد غداة بويع

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٩٣
(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٦٣
(٣) المقريزى ، البيان والاعراب ، القاهرة ١٣٣٤ نشره ابراهيم رمزى بك ص ٦٥
(٤) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٣٠
(٥) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٠٧ ، ٢١٠ و ٢١١

بالخلافة بنفسه فى أحضان الحزب القيسى ، وكانت تسوطه دماء قيسية فثارت المعارضة اليمانية وأفادت من شهرته بالمجون واستغلت خصوماته الشخصية حتى انتهى الأمر بقتله [١] .

وظنت هذه المعارضة أن الأمر قد استقب لها فجاءت بيزيد الناقص [٢] وبوأته الخلافة فآثرهم بحظوته وخصهم بالوظائف والأعطية واعتمد عليهم وبخاصة على بنى كلب ولكن الدولة كانت قد شاخت ولم تعد تقوى على النهوض . فلما جاء مروان بن محمد ونادى بنفسه خليفة بعد مصرع ابنى الوليد لم يؤلف بين الحزبين المتعارضين ، القيسى واليمانى توحيداً لصفوف الدولة وجمعاً لكلمتها على أعدائها المتكاثرين عليها المتربصين بها ، ولكنه آثر القيسية وبلغ من تقريبه إليهم أن نقل قصبته إلى حران بين منازلهم [٣] . وكانت هذه العصبية العمياء هى القاضية على الدولة الأموية فى ذلك اليوم الحاسم عند الزاب الأكبر عام ١٣٢ هـ . وهو الذى يعد من معالم التاريخ الاسلامى [٤] .

وامتد شرر هذه العصبية القومية بين القيسية واليمانية فى كل اتجاه ولم يقتصر على الشام والعراق بل شمل خراسان وسائر الولايات الاسلامية وبخاصة فى شمالى أفريقية والأندلس [٥] . وقد عانى مجموع القبائل المنضوية فى الحلف القيسى من وطأة تلك الحروب المستعرة فأنهكت قواها وأضعفت من شرتها وأنقصت عددها وذهبت بالقحول من فرسانها ولكنها على الرغم من هذا كله أثرت فى تاريخ الدولة الأموية وطبعته بطابعها وكانت حتى وهى فى صف المعارضة — كما نقول فى عرفنا السياسى

---

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢١٠ وما بعدها .
(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٢٠ وما بعدها .
(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٤٩
(٤) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣١٩ وما بعدها .
(٥) دائرة المعارف الاسلامية ، النسخة الانجليزية ج ٢ ص ٦٥٦ ب .

الحديث — تتحكم فى مصير الدولة وتوجهها الوجهة التى تشاء . ولا نبالغ إذا قلنا إن تاريخ الدولة الأموية كله لا يفهم على وجهه إلا فى ظل هذه العصبية القبلية أو القومية .

وكادت تختفى هذه العصبية فى العصر العباسى ، ذلك لأن الدولة لم تكن قائمة على الأرومة العربية وحدها ولكنها كانت تتألف من شعوب متباينة . ومهما يقل فى أن الخلافة كانت عربية أصيلة أو أنها كانت قرشية أو أنها كانت من بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، إلا أن ذلك لا يمنعنا من القول بأن الطابع العربى الخالص قد أخلى مكانه للطابع الفارسى حينا والتركى حيناً آخر . ومن ثم لم نعد نسمع عن القيسية ما كنا نسمعه عنهم فى العصر الأموى ، وليس معنى هذا أنهم زالوا من الوجود أو أن عصبيتهم قد اختفت تمام الاختفاء ولكن المعنى المقصود أنهم أصبحوا عنصراً من عناصر الامبراطورية الاسلامية وليس هو أقوى العناصر التى تتألف منها .

ونحن نسمع عن اختلاف التقليدى القديم بين القيسية واليمانية فى عهد هارون الرشيد [1] فى دمشق وأرباضها كما نجدهم فى عهد الأمين يحاربون عبد الله السفيانى [2] لا لشىء إلا لأن الدم اليمانى يجرى فى عروقه ، ونجد كذلك الخصومة بين قيس وتغلب تتجدد فى عهد المأمون [3]

وكما أننا لم نستطع فى العصر الجاهلى أن نتبين مشخصات معينة تميز قبيلة عن قبيلة ، فكذلك الحال فى العصر الاسلامى ، بل إن مهمة الباحث ، اجتماعياً كان أو مؤرخاً ، تتعذر أو تكاد تستحيل عندما يحاول أن يقص أثر الهلالية ومن حالفوا بنوع خاص . وقد مر بنا أن سليما شاركت مشاركة إيجابية فعّالة فى الأحداث

---

(١) الطبرى ، ج ٣ ص ٦٠٩ ، ٦٢٥ ، ٦٣٩ وما بعدها ، ٦٨٨ ؛ ابن الأثير ج ٦ ص ٨٦ — ٨٨

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٧٣

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢١٣

العامة أبلت فيها البلاء الحسن وغير الحسن ، وبرز منها شعراء وفرسان وقادة ، وأن عامراً اشتهرت كذلك بأيام ورجال . ولكن النسبة إلى قيس غلبت على الأفراد والجماعات وكسفت النسبة إلى مضر ونزار فى ذلك النضال القومى العنيف بين عرب الشمال وعرب الجنوب . أما هلال فقد ساروا فى المجال القيسى وكانت أخبارهم فى الاسلام كأخبارهم فى الجاهلية قليلة لاتدل على منعة ولا تشير إلى غلب . ولم يتحدث الرواة فيما تحدثوا عن أمير منهم يعلى من شأنهم ، مؤيداً للدولة أو معارضاً لها ، ولم نعرف فى كتب الأدب شاعراً مخلا من أبنائها يخلد ذكرها على الأيام . بل إن النقائض لتتحدث عن أيام لسليم وعامر وتغلب وتميم و . . . و . . . وتكاد تصمت عن هلال . وإذا رأيت النسبة إلى هلال مضافة إلى شاعر فى ديوان من دواوين الأدب ، فاعلم أنه مغمور لم يعرف إلا بأبيات قليلة لا تدل على فردية أو جماعية . ولن نستطيع أن نجزم ، أهذه النسبة إلى هلال قيس أم إلى غيره [1]

وأغلب الظن أن الهلالية وجيرانهم من سليم قد تكاثروا على الأيام فى نجد موطنهم الأول وساعدهم على هذا التكاثر انشغال الدولة عنهم بالفتح حيناً وتوطيد دعائم الحكم فى الحواضر حيناً آخر وتقطع الأسباب بين الادارة المركزية والأقاليم البعيدة عنها مع قصور وسائل الاتصال فاحتفظوا بأعرابيتهم وكانوا أهل شغب ، قليلا ما يهدأون ، يقطعون الطريق على السفر حجاجاً وتجاراً ، ويكرهون النظام أيا كان مصدره ، والسلب عندهم غنيمة مشروعة تقضى بها خلقيتهم ويقوم عليها مجتمعهم . ومن ثم كانوا من خصوم الدولة النظامية الألداء يرهبونها وترهبهم .

وأفاد العباسيون من تجاريب الأمم التى سبقتهم ودخلت فى كنفهم وبخاصة الفرس فحاولوا تنظيم رقعة الدولة مجددين فى إدارتها بعد عهد الفتوح وشرعوا يرتبون

---

(١) البحترى . كتاب الحماسة . بيروت طبعة لويس شيخو ١٩٠٩ أنظر فهرس الأعلام .

أمور الولايات والأمصار ولم يغمضوا أعينهم عن هؤلاء الأعراب غير المتحضرين ، وما كانوا يقومون به من غارات وفتن . ولذلك كره الخلفاء وعمالهم ، بنى سليم لاستطالتهم بالشر . فقد أغاروا عام ٢٣٠ هـ على المدينة وأراد عاملها أن يردهم فلم يفلح ، فما كان من الخليفة الواثق إلا أن جرد عليهم حملة يقودها « بغا التركى » فلقى عناء شديداً فى استئصال شأفتهم ثم تحول إلى أحلافهم من هلال ، وكانوا يقيمون بنجد ولهم فى تلك الفتنة أصبع فأجبرهم على الاذعان والهدوء وحوصر ألف وثلاثمائة منهم فى المدينة فتغفلوا حراسهم وأزمعوا الفرار ، ولكن أهل المدينة أعملوا فيهم السيف [1] .

ولم يقف أمر هؤلاء الأعراب عند قطع الطريق وتهديد الأمن واستياق الأموال ، بل تعدوا ذلك كله إلى الانضواء تحت راية كل ثائر يريد الاستقلال بامارة أو ولاية أو ينزع إلى القضاء على سلطات الدولة جميعاً . ولعل أخطر حركة من هذا القبيل هى الحركة الدينية الطابع المعروفة فى التاريخ بفتنة القرامطة التى اجتمع إليها الساخطون على الدولة العباسية أفراداً وقبيلا . وما كان من الأعراب الضاربين فى أطراف الدولة و بواديها إلا أن أيدوا هذه الحركة و تناسوا — ولو إلى حين — قومية الشمال أو الجنوب ، فانضم إليها من القيسية سليم وهلال وقد تمتا واشتد خطرهما . وانضم إليها من اليمانية أو تأثروها بنو كلب ، وهكذا أخذ نفوذ هؤلاء القرامطة يقوى شيئاً فشيئاً وسلطانهم يتسع يوماً بعد يوم ومدوا رواقهم على بلاد الشام وهددوا دمشق واستجاب لهم الهلالية والسلمية الذين كانوا قد هاجروا إلى هذا الاقليم لأجيال خلت ، ولوا وجوههم إلى المدينتين المقدستين مكة والمدينة ، يقطعون الطريق على الحاج ، يستنزفون دماءهم و يسلبون أموالهم ، يساعدهم فى ذلك أبناء عمومتهم الذين تتجمع منازلهم بين تينك المدينتين منذ أيام الجاهلية الأولى ، ونحن نعلم أن القرن الرابع الهجرى لم يكد يبدأ حتى عقد لواء القرامطة لأبى طاهر الجنابى ، فظهر على البصرة

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٨ ، ١٢ — ١٣

والكوفة ، وكاد يدق أبواب بغداد [١] كما أن هؤلاء القرامطة تحالفوا على طريقة البدو ، مع بنى سليم وبنى عقيل بن كعب ، وهم من بطون عامر بن صعصعة ، فعاثوا بفضل هذه القبائل فى الأرض فساداً وخفروا بحرمة الكعبة واقتلعوا الحجر الأسود من موضعه ، وأعملوا السيف فى رقاب الحجيج [٢] ، كما فعلوا عام ٣٤٣ هـ ولم تكن الدولة وقتذاك قادرة على كبح جماحهم أورد عدوانهم . فقد انتقصت رقعتها وفصل منها خير ولاياتها واختلف على الأمر فيها خلفاء ووزراء . وكتب التاريخ والأخبار التى سكتت عن الهلالية وأحلافهم ، ولم تسبغ عليهم من أوصاف المديح لتبريرهم فى السياسة أو الحرب أو الأدب بدأت تهتم بأخبارهم العدوانية وتوردها فى موضع الاستهجان ، لا لأنهم احتفظوا بالروح القبلية القديمة فحسب ، ولكن لأنهم لم يرعوا حرمة دينية أو غير دينية حتى كادوا يردون إلى الجاهلية وكانوا يغنمون لحساب القرامطة حيناً ولحسابهم أحياناً . ومهما يكن من شىء فقد أفادوا من هذا العدوان فتكاثروا وغنموا وكأنهم لا يشعرون بسلطان الدولة المهيضة الجانب .

وإذن فمن الخير أن نفرد للحادثة الكبرى فى تاريخ هؤلاء القوم ، وهى المعروفة بالغزوة حيناً وبالتغريبة أو التغريبة حيناً آخر ، باباً قائماً برأسه لنتبين تفصيل ذلك الصراع المتجدد بين البداوة والحضارة ، أو بين الاعرابية والدولة ، أو بين الاباحة التى تكاد تستحل كل شىء ، والاستقرار الذى يأخذ بأسباب الأمن والنظام .

---

(١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢ ، ٦٣ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١٤ ، ١٢٤

(٢) ابن الأثير ، ج ٨ ص ١٥٣ ، ٣٦٥

الباب الثالث

الغزوة الكبرى

لابد لنا ونحن بسبيل التعرض لهذه الغزوة الكبرى أن نقرر أننا سنميل بعض الميل إلى ما يشبه التاريخ الطبيعى ، ذلك لأننا بصدد حادثة طبيعية لم تتحكم فيها إرادة فردية إلا بمقدار . ولم تكن وليدة عبقرية حربية أو سياسية ، أو ثمرة مجد قومى أو وطنى . وهكذا يتحول محور الدراسة فى أيدينا من الفرد أو الأفراد المؤثرين فى الحوادث ، إلى الانسان أو الأناسى المتأثرين بها ، إذ ليس من المستطاع أن يعد الطموح الفردى أو الجماعى هو الباعث على هذه الغزوة . ولا نغمطها حقها باعتبارها حادثاً تاريخياً ، إذا نحن رددناها إلى ضرب من التناحر على البقاء تقوم به جماعات من النوع الانسانى .

ويحدثنا أصحاب الطبيعيات عندما نستعين بهم على فهم هذه الغزوة وأشباهها بأن هنالك دورات مناخية معقدة البواعث لا نستطيع تعليلها فى يسر ، ولكننا نلاحظ آثارها جلية واضحة فيما تتعرض له بعض الأرضين من خصب وجوع . ومن المسلم به أن سكان هذه المواضع يقل عددهم فى فترة الجوع عندما تشتد معركة التناحر على البقاء بينهم وبين الطبيعة . أما فى فترة الخصب ، فان السكان يطمئنون على ذواتهم وذراريهم وتهدأ معركة التناحر إلى حين . ويشبه بعض العلماء الصالح العام لكل جماعة بشرية بآلة حساسة من آلات الرصد تسجل جميع بوادر التذبذب أو التقلقل فى تلك الجماعة [1] . وما على العلماء إلا أن يفتحوا أعينهم على ما تسطره

(١) univ. Hist. a Study of Rase Movements : R.A.S. Macalister ج ٢ ص ٧٩١

فى أطوائها إذا أرادوا أن يفسروا حركات الجماعات البشرية تفسيراً علمياً . وغنى عن البيان أن البواعث الطبيعية التى نحن بصددها ، فيها المباشر وفيها غير المباشر . فان كل دورة من دورات الجفاف تؤثر مباشرة على الجماعة التى تنشأ فيها وهؤلاء يندفعون من مواطنهم إلى غيرها فيجلون أو يحاولون ، إجلاء أصحابها الذين يتجهون بدورهم ناحية جماعة ثالثة وهكذا . . . وقد دلت أبحاث العلماء على أهمية العامل المناخى فى هجرة الأقوام فى جميع العصور . وليس يكفى أن تنظر إلى جماعة بعينها فى نقلتها من موطن إلى موطن لتتبين هذا العامل المناخى ، فقد يكون بعيداً كل البعد عن البقعة التى تدرسها ، وخير مثل لذلك ماعرف فى التاريخ بـ « هجرة الشعوب Völker wonderungen »[1] . فلم يكن الباعث على هجرة القبائل التيوتونية ليكشف عنه فى أوربة ، لأنه إنما نشأ فى آسيه وأثر تأثيراً مباشراً فى المغل وهؤلاء دفعوا جيرانهم فأصابوا الجماعات كلها برعدة الهجرة والانتقال .

وتعد الجزيرة العربية من أهم منابع الثروة البشرية — إذا صح هذا التعبير — على الرغم من أن الجانب الأكبر منها غير مأهول وسطحها فى اتجاهه البشرى يميل ناحية الشمال ، وتقطعها فى بعض أجزائها أودية وشعاب تصلح دروبا للسفر والانتقال . وهى فى فترات الخصب والنماء تحتمل أفواجاً كبيرة من الناس والأنعام ، فاذا ما تعرضت للجدب المناحل ، وكثيراً ما تتعرض له بفضل التغيرات المناخية ، اندفعت الجماعات البشرية إلى تخوم الصحراء واستقر بعضها فى السهول وجد بعضها الآخر يفتش عن موضع يشبه موضعه الأول أيام يسره .

ويحدثنا التاريخ عن هجرات أربع كبيرة لسكان هذه الجزيرة العربية . الأولى بابلية ساطت أكاد وسومر وعيلام بدمائها وفرضت عليها لغتها . والثانية كنعانية ، على خلاف بين العلماء فى هذه النسبة إلى كنعان ، أهى إلى القوم المهاجرين ، أم إلى

(١) المصدر السابق ص ٧٩٢ أ .

الاقليم الذى هاجروا إليه وقد بلغت أرض مصر . والثالثة آرمية سيطرت على بلاد الشام وجعلت دمشق عاصمة ملكها . والرابعة هى الاسلامية التى سارت على طول الحافة الشمالية للصحراء وانتشرت فى بلاد الشام ومصر وشمالى أفريقية وعبرت الجزيرة الأيبيرية إلى مدينة بواتييه أو « بلاط الشهداء »[١] .

وهذه الهجرة الأخيرة لا تزال ماثلة بآثارها العنصرية والحضرية إلى الآن . ولكن عرب الفتح استقروا فى الأمصار وانقسموا على المنافع وألفوا الحضارة ونسوا البادية . ولم يستطع ابن خلدون فى أيامه أن يتقصى القبائل العربية التى شاركت فى الفتح ثم تحضرت واكتفى بأن قال « . . . هؤلاء كلهم أنفقتهم الدولة الاسلامية العربية . فأكلتهم الأقطار المتباعدة واستلحمتهم الوقائع المذكورة ، فلم يبق منهم حى يطرف ولا حلة تنجع ، ولا عشير يعرف ، ولا قليل يذكر ، ولا عاقلة تحمل جناية ، ولا عصابة بصريخ إلا سمع من ذكر أسمائهم فى أنساب أعقاب متفرقين فى الأمصار التى أحلوها بجملتهم فتقطعوا فى البلاد ودخلوا بين الناس[٢] . . . » .

وانتبذت طائفة أخرى من هؤلاء العرب البوادى وأقاموا أحياء جافية لم يفارقوا ما جبلوا عليه من خشونة العيش . ويكاد يكون من المستحيل أن نعطى صورة كاملة مضبوطة لنجوع هذه القبائل على اختلاف منابتها وأصولها وكثرة نقلتها ، وإن حاول قليل من المؤرخين أن يفصلوا آثار بعضها فى أقاليم بعينها[٣] ، أو يجملوا القول على مواضعها جميعاً[٤] .

وقيام الدولة العربية بالفتح أدخل عنصراً جديداً فى نقلة القبائل يتخذ المظهر الارادى ، وهذا العنصر هو تغليب العصبية فى سياسة الخلفاء والعمال بالنسبة إلى

(١) [The Dawn of History : J.L. Mayers ص ١٠٩ وما بعدها
(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٣
(٣) المقريزى فى كتاب البيان والاعراب ص ٢٠ وما بعدها .
(٤) ابن خلدون فى الجزء السادس من كتابه ص ٥ ، ٦

البدو ، وقد سبق أن رأينا عند حديثنا عن العصر الأموى[١] أن الموازنة بين التأييد والمعارضة فى الدولة كانت تقوم بالعصبية ولا تقوم بأى شىء آخر . ولكن هذه الهجرات التى دعا إليها أصحاب السلطان — فى ظاهر الأمر — لاتدل على أن الباعث الطبيعى مفقود ، ذلك لأنها إنما كانت توابع للهجرة الكبرى أو حركة الفتح نفسه دعا إليها العمل على التنظيم ومحاولة الاستقرار بعد الغلب والملك .

ولعل مما يحول بيننا وبين أحكام السير على المنهج الطبيعى فيما يتصل بالغزوة الهلالية ، أن المؤرخين قصروا همهم على تتبع المظاهر دون الالتفات إلى البواعث الطبيعية حتى ضاعت معالم هذه البواعث . وقد نبئنا أن القبائل القيسية انتشرت فى بادية العراق منذ الفتح الأول أو حتى قبله وأنهم لونوا تاريخه بطابعهم الخاص أمداً ما ، وعرف شطر منه بديار مضر فى مقابل الشطر الآخر المعروف بديار ربيعة[٢] ، وكانت لسليم وهلال بخاصة محلات فى حواضره . من ذلك ما ذكره الطبرى[٣] أن فريقاً مهماً من بنى هلال وبنى سليم اتخذوا لهم محلة بوادى الكوفة حوالى عام ١٢٠ هـ ، وكان فى هذا الموضع مسجد يعرف بمسجد بنى هلال . كما أن بنى هلال هاجروا إلى بلاد الشام وغلبوا على أرباض حلب والموصل ونزلوا المنازل التى كانت قبلهم لربيعة وكهلان[٤] ، واستقر بعض بنى هلال وغالب بنى سليم فى نجد لم يغادروها مع الأفواج التى غادرتها وظلت فى مكانها إلى القرن الرابع[٥] . أما فى مصر فقد مر بنا أن صاحب الخراج فيها استقدم إلى الخوف الشرقى أيام هشام بن عبدالملك الأموى عام ١٠٩ هـ أبياتاً قيسية من نصر بن معاوية وعامر بن صعصعة وغيرهما

---

(١) الباب الثانى

(٢) ابن خرداذبة ص ٢٤٥ : ٢٤٦

(٣) ج ٣ ص ١٦ ، ٨٧

(٤) مارسيه ، ص ٦٦ Ses Arabes Berbréie

(٥) المصدر نفسه .

من بطون هوازن[١]، ويذكر ابن خلدون أن آخر مواطن العرب الهلالية كانت فى برقة إذ انتجعها بنو قره بن هلال بن عامر[٢].

ولم يكن الفاطميون كبنى العباس الذين خرجوا على النزعة العربية مجاراة للعنصر الفارسى حيناً والعنصر التركى حيناً آخر، ولكنهم كانوا أقرب إلى الأمويين يحتفلون بالأعراب ويتخذون العصبية القبلية فى سياسة الملك وتوطيد أركانه ولعلهم تفوقوا عليهم فى هذا المضمار، فقد شادوا دولتهم على عصبية كتامة وأنابوا عنهم من بطونها صنهاجة لما اتسعت فتوحاتهم كما استغلوا الاحن القبلية القديمة فى القضاء على خصومهم والاحتفاظ بالتوازن فى دولتهم المترامية الأطراف.

أما الأعراب الهلالية والسلمية فقد انصرفوا إلى تحقيق مآربهم دون أن يكترثوا بالدولة العباسية التى رغبت عنهم إلى غيرهم. وكثيراً ما دفع التقلقل الداخلى أولئك الأعراب إلى الاستهانة بسلطانها والاستخفاف بعمالها. وقد كانوا متأهبين أبداً لأن يلبوا دعوة كل ثائر أياً كان مذهبه. وكيف لا ينضوون تحت راية القرامطة الذين لجوا فى خصومة الدولة وكادوا يقتحمون بغداد. والذين قالوا إلى جانب هذا بشيوعية الأموال والنساء؟ لقد أصبحوا من جنود هؤلاء القرامطة وكانوا عصب دولتهم فى البحرين، ولكن ذلك لم يكن يعنى أنهم «تقرمطوا» فما كانت النحل عندهم إلا وسائل يتذرعون بها لجر المغانم والأسلاب. وكان موقفهم من الدولة التى شادوها كموقفهم من العباسيين سواء بسواء، فقد استطالوا عليها واستغلوا بالأناوات دونها وكانوا جرثومة اضمحلالها، كما كانوا جرثومة ازدهارها، وقد رأيناهم عند ما تقلص ظل القرامطة وشاخت دولة بنى العباس لا يجدون غضاضة فى التحول إلى الفاطميين الذين كانوا حرباً عليهم، فتتألفهم هذه الدولة الفتية لتستخدمهم فى حروبها الداخلية والخارجية على السواء.

---

(١) راجع هامش الفصل الثانى من هذا الكتاب؛ المقريزى البيان والأعراب ص ٦٤ ـ ٦٦

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٥١٤

ويمكننا أن نقسم الغزوة الهلالية التي تعنينا إلى طورين :

الطور الأول ، وهو أدنى إلى الهجرات ، أهمها اثنتان كانت الأولى فى بداية عهد العزيز بالله . فقد ذكر ابن خلدون « . . . تحيز بنو سليم والكثير من ربيعة ابن عامر إلى القرامطة عند ظهورهم وصاروا جنداً بالبحرين وعمان ، ولما تغلب شيعة ابن عبيد الله المهدى على مصر والشام وكان القرامطة قد تغلبوا على أمصار الشام فانتزعها العزيز منهم وغلبهم عليها وردهم على أعقابهم إلى قرارهم بالبحرين ونقل أشياعهم من العرب من بنى هلال وسليم فأنزلهم بالصعيد وفى العدوة الشرقية من بحر النيل فأقاموا هنالك . . . » لكن ابن الأثير السابق له لم يورد شيئاً يتصل بنقل العزيز بالله لهؤلاء الأعراب إلى الديار المصرية . ونحن لا نستطيع أن نقطع برأى فى هذه الأخبار ، إلا أن العرب قد نفضوا أيديهم من القرامطة حول ذلك الوقت وانضموا إلى الفاطميين وساروا إلى مصر فى صورة الهجرة الجماعية زمراً من الجزيرة العربية وبلاد الشام . ومن البديهى أن جميع الأعراب لم ينتقلوا دفعة واحدة إلى صعيد مصر ، فقد ظل قسم من بنى هلال فى الشام واستقروا فى حواضره وانتجعوا ريفه وفلحوا الأرض فنقدوا بداوتهم على الأيام وفنوا فى غيرهم ولم تبق منهم إلا ذكرى فى أخلاد الأجيال المتتابعة [٢] . ونحن نجد فى القرن الثامن الهجرى بمدينة حوران ، جبلا يسمى جبل بنى هلال [٣] وبقى عدد كبير منهم فى الجزيرة العربية وفى نجد بخاصة .

أما الفترة الثانية ، وكانت أواخر عهد العزيز بالله ، فقد بدأت بدخول عنصر جديد يشارك فى الحوادث ، هو قبيلة بنى المنتفق ولا يزال جانب منها يعيش فى السهل الساحلى الشرقى للجزيرة العربية ، كما أن المؤرخين يذكرون أن جانبا اخر قد نزح إلى

---

(١) ج ٦ ص ١٣

(٢) مارسيه ص ٧٥ ، المصدر السابق .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية (النسخة الانجليزية مادة تيس عيلان) .

المغرب الأقصى ، ونحن لا نستطيع أن نحدد على التحقيق ، العام الذى تمخضت فيه أركان الدولة القرمطية بالبحرين . بيد أن ابن الأثير[1] ذكر فى حوادث عام ٣٧٨ هـ « . . . فى هذه السنة جمع إنسان يعرف بالأصفر من بنى المنتفق جمعاً كثيراً وكان بينه وبين جمع من القرامطة وقعة شديدة قتل فيها مقدم القرامطة وانهزم أصحابه وقتل منهم وأسر كثير وسار الأصفر إلى الاحسا فتحصن منه القرامطة فمدل إلى القطيف فأخذ ما كان فيها من عبيدهم وأموالهم ومواشيهم وسار بها إلى البصرة » . والراجح أن بنى المنتفق هؤلاء بطن من تغلب[2] . ويوضح لنا ابن خلدون أثر هذا العامل الجديد فى نقلة القبائل التى تعنينا ، إذ يقول[3] : « . . لما انقرض أمر القرامطة غلب بنو سليم على البحرين بدعوة الشيعة لما أن القرامطة كانوا على دعوتهم ثم غلب بنو الأصفر بن تغلب على البحرين بدعوة العباسية أيام بنى بويه وطردوا عنها بنى سليم فلحقوا بصعيد مصر . . . » .

ونحن نستخلص من هذا أن بنى المنتفق هؤلاء قد تكاثروا وانتشروا فى الجزيرة العربية وانتجعوا المواضع التى كانت قبل ذلك لغيرهم وأنهم أصبحوا أقوى من بنى سليم المعروفين بالعزة والمنعة حتى أكرهوهم على الهجرة الجماعية عن ديارهم فى الجزيرة العربية إلى غير رجعة ثم اللحاق بأبناء عمومتهم فى البدوة الشرقية من ديار مصر .

وليس معنى هذا أن الأعراب الهلالية والسلمية قد نزحوا إلى مصر فى تينك الفترتين فحسب . ذلك لأن المتصفح لتاريخ مصر يستطيع أن يضع أصبعه على هجرات أخرى اتخذت صورة الغارات غير النظامية وأنها قويت بقوة الدعوة القرمطية أو لعل الأصح أن نقول إن الدعوة القرمطية هى التى قويت بهم . ومما لا شك فيه أن الفاطمية العبيدية ، وهم شيعة علوية عملوا على الافادة من القرامطة فشجعوهم

(١) ج ٩ ص ٤٠

(٢) أنظر ابن الأثير ج ٩ ص ٣٦٩ ؛ ابن خلدون ج ٦ ص ٧٢

(٣) ج ٦ ص ٧٢

والأعراب المنضوين تحت لوائهم على الايغال فى الفتنة والعدوان على الدولة العباسية تثبيتاً لأقدامهم وبسطاً لسلطانهم على ولاية مصر الكثيرة الخيرات . فلما تحقق لهم ما أرادوا وأصبحوا يمثلون الدولة النظامية كان لابد لهم أن يقبضوا أيديهم عن القرامطة بل وأن يختلفوا وإياهم . فما كان من هؤلاء إلا أن كشروا عن أنيابهم للفاطميين وراحوا يؤيدون خصومهم القدامى العباسيين .

وقد تكررت غارات القرامطة على مصر فى صورة الموجات البدوية الاعرابية ولم يكن عمادها السليمية والهلالية وحدهم ، فقد اشترك فيها غيرهم كبنى طىء ذوى المنعة فى بلاد الشام . وبلغ من قوتهم أن خافهم جوهر الصقلى فاتح الديار المصرية قبل أن يتزلها المعز[1] . وهذا يدل على أن نزول الأعراب بمصر كان أوسع مدى من تينك الموجتين السابقتين ، وكل ما فى الأمر أنهما كانتا أقوى من سواهما ، فاختصا بالذكر ولم يكن ما فعله العزيز بالله فى فاتحة خلافته بمصر إلا مجرد الافادة البارعة من الموقف دون أن يلقى باله إلى عواقب النقلة فى الأمن الداخلى بديار مصر .

ومن اليسير أن نتتبع الطريق الذى سلكته هذه القبائل إلى مصر سواء أكان ذلك من بلاد الشام أم من الجزيرة العربية وإن كنا لا نستطيع أن نتبين فى وضوح مراحله بالنسبة لهذه القبائل . ذلك لأن الاقليم الشرقى للديار المصرية قد شاهد منذ أقدم العصور الموجات البشرية الداخلة إلى مصر أو الخارجة منها مما دفع بالعلماء بعامة والجغرافيين بخاصة إلى دراسته والاحتفال بما فيه من الظواهر الطبيعية والبشرية وقد تحكمت الظروف الطبيعية فى الطريق الذى سلكته هذه الهجرات . كما أن هذا الطريق كان يتغير تبعاً لمصادرها ، فإن الأقوام الوافدين من صحراء الشام كانوا كثيراً ما يتخذون السهل الساحلى مارين بالطرف الشمالى من شبه جزيرة سينا . أما الهجرات

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٥٣ ، مارسيه ص ٧٤

الآتية من نجد والحجاز فلم يكن هناك ما يدعو إلى ذهابها إلى أقصى شمال شبه الجزيرة ما دام هدفها الرئيسى هو الوصول إلى دلتا النيل [١].

ولا مشاحة عندنا فى أن الهلالية الذين انتقلوا أو نقلوا إلى مصر قد ساروا فى السبيل المطروقة قبلهم منذ أمد بعيد ، فقد اتخذوا ما نستطيع أن نعده أقدم طريق فى العالم وهو المعروف عند المصريين القدماء بطريق حورس والمذكور فى التوراة بطريق الفلسطينيين والمشهور عند العرب بدرب السلطان [٢] وتكاد تجمع المصنفات الجغرافية العربية على خطوطه البارزة وإن افتقرت إلى وصفه وهى لا تختلف فيما بينها إلا فى القليل من التفاصيل وهى ترسمه من الشام متجهاً إلى السهل الساحلى ماراً بعسقلان فغزة ثم رفح فالشجرتين فالعريش [٣] ثم إلى العذيب فالفرما . وترسم الطريق المقابل له من بلاد العرب بأنه يخرج من حافة الصحراء إلى العقبة والنخل ثم يخترق شبه جزيرة سينا إلى السويس [٤] . ومما تجدر الاشارة إليه أن بطائح بحيرة المنزلة كانت قد اتسعت رقعتها بعد الفتح العربى وكوّنت صفحة مائية متصلة من بحيرة المنزلة فى الشمال إلى بحيرتى البلاح والزار فى الجنوب مما جنح بالهلالية ومن سبقهم من العرب إلى تعديل الطريق بعض الشىء ناحية الجنوب بحيث يسير بمحاذاة أطراف الدلتا الشرقية إلى فتحة الوادى المعروف بالطميلات مخترقين هذا الوادى إلى شرق الدلتا [٥] . ومنها تتجه الى الأراضى الخصيبة نحو الغاضرة (أى السعيدة) [٦] .

---

(١) ابراهيم أ . رزقانة . الجغرافيا التاريخية لشرق الدلتا ص ٣٢٩

(٢) المصدر السابق ص ١٩٦

(٣) اليعقوبى . البلدان ص ٩١

(٤) أنظر تفصيل هذا الطريق فى ابن خرداذبة . المسالك والممالك ص ١٤٩ ، الأدريسى نزهة المشتاق ص ١٦٣ ، ١٦٤ ، قدامة الخراج ، ص ١٩٠

(٥) ا . ا . رزقانه ص ٣٢٩ (المصدر السابق) .

(٦) يؤخذ من أقوال قدامه أن الغاضرة لقب على فاقوس . الخراج ص ٢١٩ ، ٢٢٠

ثم إلى بلبيس فالفسطاط [١] ثم يستقيم الطريق مع مجرى النيل مصعداً إلى النوبة . وليس ثمة شك فى أنهم لم يسيروا فى الطريق الصحراوى القديم المعروف بطريق الحجاج لأن هذا الطريق أجرد ماحل به عيون قليلة متباعدة [٢] . وهو إذا صلح لسير الأفراد أو الجماعات المتفرقه أو قوافل التجار ، فانه لا يصلح لسير جماعات هائلة كهؤلاء الهلالية جاءوا بأنعامهم وحوائجهم و نسائهم وأطفالهم .

ولم يكن الهلالية والسلمية وحدهم الذين ينتجعون شرقى الديار المصرية . بل لم يكن القيسية وحدهم هم الذين ساروا فى هذا الدرب وشاركوا المصريين خيرات بلادهم ، بل كانت هناك قبائل من عرب الجنوب اتخذت محلاتها فى ذلك الحوف وما يليه إلى الصعيد قبل الهلالية بأمد ليس بالقصير . ويعطينا ابن خلدون [٣] والمقريزى [٤] صورة على شيء من الوضوح لتوزيع القبائل البدوية فى مصر وهذه الصورة ، وإن مرت عليها السنون بين نزول الهلالية وبين تسجيلها ، إلا أنها يمكن أن تنطبق فى مجملها على الحالة التى كانت عليها منازل هذه القبائل فى الفترة الواقعة بين منتصف القرن الرابع إلى منتصف القرن الذى يليه واعتمد عليها الجغرافيون المحدثون فى أبحاثهم [٥] . فقد نزل الصعيد الأعلى عند أسوان وما بعدها بنو جهينة إحدى بطون قضاعة وانتشروا فى إقليم النوبة وصعدت جماعات منهم إلى السودان والحبشة ونزل الصعيد الأعلى أولاد الكنز وينتسبون إلى ربيعة بن معد ، ومن أسوان إلى قوص عاش الجعافرة الذين يزعمون أنهم من الأشراف وأن جدهم جعفر بن أبى طالب وأغلبهم تجار وهم ينتشرون إلى الصعيد الأوسط وإلى جانبهم من قريش بنو طلحة و بنو الزبير

(١) ابن خرداذبه . المسالك والممالك ص ٨٠

(٢) أ . أ . رزقانه ص ٣٢٠ (المصدر السابق) .

(٣) ج ٦ ص ٦٢٥

(٤) البيان والاعراب ص ٢٠ وما بعدها .

(٥) A Study of Ethnic stocks : Abbas Ammar

وأخلاط تنتسب إلى بنى عمر و بنى أمية . و تتوزع منازل قيس فى شرقى الدلتا وجنوبها، فغزارة قيس فى أرباض القاهرة وقليوب وما حولها . وسليم وهلال فى منطقة متسعة تتوسطها بلبيس وإن انتقلت بطون منهم إلى الصعيد وزاحمتهم لخم وهم يمانية فى الخوف الشرقى واستقر كثير منهم فيه ورغبوا عن البداوة إلى الزراعة ، أما جذام فقد توزعتهم الجزر الخضراء المتفرقة فى الشمال الشرقى لدلتا النيل وأخذت بطون من طيء تنتقل بين الشام ومصر طلباً للكلأ والمرعى . ومن القلزم إلى يذبع قبائل من جهينة وقضاعة و تفرقت بطن من جذام تعرف بالعبايدة فى الجنوب الشرقى للحوف.

وانعكست الآية على الدولة الفاطمية بقدوم هؤلاء الأعراب الهلالية والسلمية أو استقدامهم إلى صعيد مصر والعدوة الشرقية من النيل ، فقد كان المقصود إضعاف الفرامطة ومن إليهم من خصوم الدولة والاعتماد عليهم فى إكراه أهل البلاد المفتوحة عنوة ولكن هؤلاء الأعراب لم يستطيعوا الخروج عن طبائعهم فنقلوا إلى الديار المصرية ما اعتادوا من شرائع الصحراء فى الثارات والحقود وبخاصة ما كان منه بين زغبة ورياح [1] ، كما أنهم استطالوا على السكان الوادعين يدهمون ديارهم ويعتدون على محاصيلهم ويسلبون أموالهم ويأخذون أنعامهم ودوابهم غصباً ويقطعون الطريق على التجار ويستطيلون بالأذى على من يقربهم أو يقربوه [2] حتى أصبحت الدولة الفاطمية تواجه فى جماعاتهم ، المشكلة التى تواجهها كل دولة نظامية .

وقبل أن نمضى فى تتبع الحوادث ، نرى لزاماً علينا أن نعرض لهذا السؤال : لماذا غلب اسم هلال على هذه القبائل ؟ ونحن نعلم أنهم لم يكونوا جميعاً هلالية ، فقد شاركهم بنو سليم ولم يكونوا أقل منهم عدداً وأهون شأناً ، بل لعلهم كانوا أمنع

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٨٨

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٣

جانباً وأبعد صوتاً ، كما أنه قد انخرط فى مجموع هذه القبائل وحدات لا تشترك معها فى القربى وفيها مضرية غير قيسية ويمانية قحطانية . فقد ذكر ابن خلدون [١] : « . . وكان فيهم من غير هلال كثير من فزارة وأشجع من بطون غطفان وجشم بن معاوية بن بكر بن هوازن وسلول بن مرة بن صعصعة بن معاوية والمعقل من بطون اليمنية وعمرة بن أسد بن عامر بن صعصعة وعدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان وطرود بطن من فهم بن قيس . . . » . ونحن نرجح أن ذلك إنما يرجع لانتقال الرياسة إليهم وقتذاك ، فما نعلم أنها كانت فيهم أيام الجاهلية أو صدر الاسلام إلا قليلا . وابن خلدون صريح فى النص على وجود الرياسة فيهم ، إذ يقول : « . . . إنهم كلهم متدرجون فى هلال وفى الأثبج منهم خصوصاً لأن الرياسة كانت عند دخولهم للأثبج وهلال . . » [٢] . وهناك عامل مساعد على استئثارهم بالشهرة المتأخرة لا يمكن إغفاله بحال ، وهو عامل بيانى يتصل بالاسم « هلال » وسهولته ودورانه على الألسنة واتصاله بالنير الذى يدل عليه » [٣] .

ولنتوجه بأنظارنا نحو الشمال الغربى لدلتا النيل حيث مضارب بنى قرة وهم الذين يزعمون أنهم من ولد هلال وإن اتخذوا مقامهم فى هذا الاقليم قبل قدوم إخوتهم فى العدوة الشرقية بأجيال وكانت منازلهم آخر ماوصل إليه الأعراب إذا أخذنا بقول ابن خلدون [٤] وكان قرارهم فى الجبل الأخضر وما يليه من برقة . ولم يستقروا ويتحولوا عن البداوة على الرغم من طول مقامهم فى أرض خصيبة وخلطتهم لأقوام فلاحين ، وما نشك فى أنهم كسائر البدو يكرهون النظام ويتربصون بالسلطان ويعيشون على الغنيمة . ولا يحتفظون بالمذاهب الدينية إلا بمقدار اتصالها بمنافعهم

(١) ج ٦ ص ١٦ ، ١٧

(٢) ج ٦ ص ١٧

(٣) أنظر تفصيل ذلك فى الحديث عن الشطر بآخر الباب الرابع من هذا البحث .

(٤) ج ٦ ص ٤ ، ٥

وتبريرها لفعالهم . وقد ذكر المؤرخون أنهم استجابوا إلى أبي ركوه [1] في شق عصا الطاعة للعبيدية الشيعية والبيعة للقائم العباسي ، وكانوا مع نفر من المعارضين الساخطين حرباً عواناً على الدولة الفاطمية ، وبلغ من تحمسهم في القضاء على سلطانها ، أنهم صالحوا زناتة وتناسوا ، إلى حين ، ما كان بين أولئك وهؤلاء من ثارات ودماء . واستهانت الدولة بهم أول الأمر حتى غلبوا عاملها واستقلوا باقليم برقة ، فأدركت أن الأمر جد فأرسلت الكتائب إليهم فمنيت بالهزيمة فما كان من العرب ومن انضم إليهم من كتامة وعلى رأس الجميع أبو ركوه إلا أن طمعوا في ملك مصر ذاتها فبعثوا السرايا إلى أرض الصعيد ثم تحولت هذه السرايا إلى غزو حقيقي . وكانت الدولة الفاطمية قد استشرقت بعد أن اطمأنت في وادي النيل وجعلت قصبتها في مصر . فأرسلت إلى الشام تكتب الكتائب وأطمعت بعض العرب الذين في الجانب الشرقي وبذلت الأموال ونهضت تقاوم هذه الغزوة بكل وسيلة حتى أوقفتها وفرقت جموعها وأسرت قائدها عام ٣٩٧ هـ . ويقال إن الفضل الأكبر في ذلك إنما يعود إلى بني قرة ومن إليهم ، فقد انساقوا إلى أبي ركوة انسياقهم إلى كل ثائر طمعاً فيما تجره الفتنة من المغانم والأسلاب ، لا إيماناً بمذهب أو إخلاصاً لعقيدة أو تحقيقاً لمثل . فلما بذلت لهم الأعطيات وفرقت عليهم الأموال آثروا السلامة وقعدوا عن نصرته وكانوا السبب في هزيمته كما كانوا السبب في قوته واتساع سلطانه [2] .

وإذن فقد عانت الدولة الفاطمية الأمرين من هؤلاء العرب الهلالية شرقي مصر وغربيها على السواء حتى أصبحوا مشكلة من أهم المشكلات التي تواجهها وكان قد بدأ

---

(١) يذهب بعض المؤرخين إلى أنه من ولد هشام بن عبد الملك بن مروان ويقرب في النسب من المؤيد هشام ابن الحاكم الأموي صاحب الأندلس وأنه من هرب من الأموية أيام المنصور ابن أبي عامر ، ابن الأثير ج ٩ ص ١٣٩

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٣٩ — ١٤١

الأمر فى دست الحكم يضطرب ويتقلقل تبعاً لأهواء القادة والوزراء والمشيرين بل وأمهات الخلفاء من بنات النصارى أو اليونان[١]. وأخذت رقعة الدولة تنكمش على مر الأيام فى وقت يحدق الصليبيون فيه بالدول الاسلامية جميعاً ، ولا عبرة بامتداد النفوذ الفاطمى العلوى ناحية الشرق ، فقد أخذت مدن الشام تقاومه ووقف بنو سلجوق حجر عثرة فى سبيل اتساعه . وما يقال عن الخطبة للعبيديين فى مساجد بغداد ، لا يدل على نهضة الدولة بقدر ما يدل على نهضة قائد تركى واحد ، عمل باسمها فترة ثم انحرف عنها . ويمكن أن يقال ، دون أن يكون فى هذا القول غلو أو سرف ، إن رقعة الدولة عند ما ولى المستنصر الأمر فيها لم تكن تتعدى الديار المصرية إلا قليلا[٢].

ولكى ندرك مدى استشراق الدولة الفاطمية التى جاءت من المغرب ، علينا أن نذكر أنها قامت أول ما قامت على أكتاف قبيلتين بربريتين قويتين أو بتعبير أدق مجموعتين متسمتين من القبائل البربرية تعرفان فى التاريخ بكتامة وصنهاجة . قام الملك الفاطمى بالأولى وعاونت الثانية عليه . وشاءت الظروف أن ترتبط صنهاجة بكتامة منذ القدم إذ جمعتهما أواصر واحدة من الدم والجوار واللغة المشتركة والحياة المتشابهة والتراث الموحد وظهرتا فى التاريخ مرتبطتين متجاورتين متلازمتين ربط القدر بين مصيريهما[٣]، ولا حاجة بنا إلى الغوص على أنسابهما ، فقد فصلها ابن خلدون[٤]. وحسبنا أن نشير هنا إلى أن أمير صنهاجة بلكين بن زيرى هو الذى تولى عن الفاطميين أمر المغرب بعد رحيلهم إلى مصر فأسس بذلك دولة بربرية موالية للفاطميين . ولكن هذه الدولة أخذت تقوى شيئاً فشيئاً حتى أصبح ولاؤها للفاطميين إسمياً أو يكاد ،

---

(١) A History of Egypt, The Middle Ages : Stanly Lane Poole ص ١٣٧

(٢) S.L. Poole المصدر السابق ص ١٣٧

(٣) حسن محمود : الدولة الزيرية ص (ض) عن Les Berbères : Pournel ج ٢ ص ١٠٤

(٤) ج ٦ ص ١٤٨ وما بعدها .

تقتصر مظاهره على الخطبة والسكة وقبول كتاب الولاية وتبادل الهدايا بين الطرفين [١] . فلما بلغت أوجها أيام المعز بن باديس استشعرت القدرة على تمام الاستقلال عن الدولة العبيدية الشيعية فقطع سلطانها الصيغة العلوية من الآذان وجهر بالمذهب السنى واتصل بخليفة بنى العباس القائم بأمر الله وأمر بالخطبة له على منابر المهدية والقيروان بدلا من المستنصر بالله الفاطمى [٢] .

فى هذه الظروف المحيطة بالدولة الفاطمية بدأ الطور الثانى للهجرة الكبرى ، وهو أدنى إلى الغزوة أو الغارة فى مظهره . وكان فى صدر الفترة الطويلة التى حكمها المستنصر بالله . وقد ناقش صاحب رسالة الدولة الزيرية [٣] تأريخ إعلان استقلالها عن الفاطميين بقطع الخطبة لهم واستعرض آراء المؤرخين التى تتذبذب بين عامى ٤٣٣ ، ٤٤٠ هـ وبين أن ذلك قد تم على مرحلتين ، أقيمت الخطبة فى الأولى بمساجد القيروان دون أن يتعرض الخطباء للخليفة الفاطمى بسوء ، وكانت عام ٤٣٥ هـ . والثانية عام ٤٤٠ هـ . وفيها سب الخطباء الفاطميين على المنابر ولم يكتف صاحب القيروان الصنهاجى بأن يجهر باستقلاله على هذا الوجه بل بالغ فى ذلك وأمعن ، فضرب السكة باسمه ، ولم يدرج فيها صيغة « على ولى الله » التى تتسم بها سكة الفاطميين وحرم على رعيته التعامل بغير سكته [٤] كما اصطنع السواد فى البنود والرايات وكسى التشريف لنفسه وأكابر رجاله [٥] .

وسواء أكان تصرف المعز الصنهاجى عن إيمان راسخ بالمذهب السنى ، أم عن نزعة قومية تطلب الاستقلال والعزة فإنه قد نفض يديه تماما من الخلافة العبيدية

---

(١) S.L. Poole المصدر السابق ص ١٣٧

(٢) ابن الأثير : ج ٩ ص ٣٨٨ ومابعدها .

(٣) حسن محمود : المصدر السابق ص ٢٧٩ وما بعدها .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ص ٢٨٩ ، ٢٩٠

(٥) المصدر السابق ص ٢٩١ ، ٢٩٢

وتجاوز ذلك إلى خصومتهم وعدم الاكتراث بما تجره عليه هذه الخصومة من حرب وقد كفانا ابن خلدون مئونة التحقيق التاريخى عند ما ذكر ما اشتجر بين الدولتين من صراع شديد ، فقد بين أنه لم يكن فى عهد الوزير أبى القاسم على بن أحمد الجرجرائى ، وإنما كان أيام الوزير أبى محمد الحسن بن على اليازورى [1] . والظاهر أن هذا الالتباس الذى وقع فيه المؤرخون والذى أشار إليه ابن خلدون يرجع إلى ما كان بين المعز بن باديس وبين الأول من مكاتبات لانخوض فى تفصيلها . ويذكر المؤرخون كذلك قصة النزاع الذى قام بين صاحب المغرب ووزير الخلافة الفاطمية اليازورى ، وخلاصتها أن المعز لم يخاطبه بما كان يخاطب الذين قبله من الوزراء ، فقد كان يخاطبهم بعبارة « بعبده » فمال عنها فى مخاطبة الوزير الجديد بعبارة « بصنيعته » احتقاراً لشأنه واستخفافاً به لأنه ، كما يقول هؤلاء المؤرخون : « لم يكن من أهل الوزارة ولكنه كان من أهل البناية والفلاحة » [2] ، فعظم ذلك عليه وعاتبه وطلب إليه أن يرجع إلى ما كان من آداب المراسلة فى ذلك العهد . فلما أبى صمم الوزير لينتقص منه ، وشرع يوقع بين الخليفة وبينه وأغرى العرب به . ولم يكن الأمر يحتاج إلى هذا العناء كله من المؤرخين فى البحث عن سبب مباشر يدفع إلى الاصطدام ، فقد أعلن المعز استقلاله بما كان يأتيه من مظاهر العداوة الصريحة للخلافة الفاطمية التى أغضت عنه أول الأمر ، كما أغضت قبل ذلك عن أبى ركوه وبنى قره ، وكانت مشغولة عنه بما تواجه من مشكلات المشرق ، ولكنها فى الوقت نفسه لا تترك فرصة تمر للايقاع به إلا انتهزتها .

ولم يكن يبدو من العرب الهلالية الذين استقروا فى العدوة الشرقية من النيل وصعيد مصر أى ميل إلى الاستقرار والجنوح إلى الفلاحة واتخاذ المدر بيوتاً ومنازل ،

(١) ج ٦ ص ١٣ ، ١٤ وقد ذكر فيه اسم الجرجانى بدلا من الجرجرائى .
(٢) ابن الأثير : ج ٩ ص ٣٨٧
(٣) ص ٣٠٠

والظاهر أن الفاطميين كانوا يراقبونهم بعين ساهرة إلى جانب الإحسان إلى أشياخهم وتقريب أمرائهم واصطناع كثير من عشائرهم فى جيوشهم . ونحن نفهم من عبارة أوردها ابن عذارى[1] أن الفاطميين كانوا يحولون بين هؤلاء الأعراب وبين عبور النيل إلى العدوة الغربية ، وهذا هو الذى دعاهم إلى أن يمكثوا فى منازلهم الشرقية ما يقرب من قرن كامل حتى تكاثروا وانضم إليهم غيرهم من أبناء عمومتهم ومن الأخلاط والسواقط من البدو ، وليس يعقل أنهم بعد أن أصبحوا على هذه القوة الجماعية التى لا تدفع ، أن يحول بينهم وبين النقلة ، إذا أرادوها ، أحد الناس كائناً من يكون ، وبخاصة وهم يعلمون أن فى الجانب الغربى إلى برقة ينتشر أخوة لهم وأبناء عم . ولو صحت الروايات التى يذهب إليها كثير من المؤرخين وهى أن البازورى بعد أن أصلح بين أشتات هذه القبائل بشخصه أو بنائب عنه أذن لهم باجتياز النيل وحرضهم على عدوه وعدو الدولة المعز بن باديس ومنح كل فرد منهم ديناراً وبعيراً ووعدهم بالإمداد والمئونة[2] فكان ذلك الإغراء إفادة بارعة من واقع لا شك فى حدوثه .

ويفصل ابن خلدون أسماء القبائل التى اجتازت النيل وولت وجهها شطر برقة والمغرب فيقول : « . . . وشعوبهم لذلك العهد . . زغبه ورياح والأثبج وقره وكلهم من هلال بن عامر وربما ذكر فيهم بنو عدى ولم نقف على أخبارهم وليس لهم لهذا العهد حى معروف فلعلهم دثروا وتلاشوا وافترقوا فى القبائل ، وكذلك ذكر فيهم ربيعة ولم نعرفهم لهذا العهد إلا أن يكونوا هم المعقل كما نراه فى نسبهم وكان فيهم من غير هلال كثير من فراره وأشجع من بطون غطفان وجشم ابن معاوية بن بكر ابن هوازن وسلول بن مره بن صعصعة بن معاوية والمعقل من بطون اليمنية وعمرة

(١) ص ٣٠٠

(٢) ابن عذارى : ص ٣٠٠ ، ابن الأثير : ج ٩ ص ٣٨٨ ، ابن خلدون : ج ٦ ص ١٤

ابن أسد بن ربيعة بن نزار وبنى ثور بن معاوية بن عباده بن ربيعة البكاء بن عامر ابن صعصعة وعدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان وطرود بطن من فهم بن قيس...»[١]

وتحركت جموعهم متجهة إلى الشمال الغربى ميممة إلى الشعبة الهلالية الأخرى التى ذكرناها آنفاً المعروفة ببنى قره الذين ينسبون إلى عبد مناف بن هلال والذين أشرنا إلى بعض ما كان بينهم وبين الدولة الفاطمية من وقائع تدل على أنهم كانوا قوة يعمل لها حساب فى برقة وما يليها. ولم يكن ولاؤهم لأى من الدولتين المصرية أو المغربية خالصاً. فكما انتقضوا على الحاكم بأمر الله أكثر من مرة، كانوا يقطعون التجارة بين الامارة الصنهاجية وبين مصر حتى بلغ منهم أن استاقوا الهدايا المرسلة إلى صاحب المهدية[٢].

ونستخلص مما ذكره المؤرخون أن هذا الطور الثانى المتخذ شكل الغزوة قد تم على دفعتين. كانت الأولى — على ما يقال — بإغراء الفاطميين فى شخص وزيرهم اليازورى. وكانت الثانية هجرة لا إكراه ولا ترغيب فيها، أقدم عليها الأعراب ليشاركوا فيما ناله أخوتهم وأبناء عمومتهم من فىء وغنيمة. بل إن بعضهم ليذهب إلى أن الفاطميين أدركوا قوة هذه الرغبة فى النقلة الثانية ففرضوا على أفرادها مايشبه المكوس وأخذوا عن كل رأس دينارين؛ أى أنهم أخذوا بالشمال ماسبق أن أعطوه لأخوتهم باليمين[٣] ويفهم مما ذكره ابن خلدون[٤] أن بنى سليم كانوا العنصر الغالب فى الهجرة الثانية كما كانوا فى الطور الأول، فهم من بطونهم التى رآها فى أيامه: زغب وديلب وهبيب وعوف. ونحن نوافق مارسيه[٥] فيما ذهب إليه من أن هؤلاء

(١) ج ٦ ص ١٦، ١٧
(٢) ابن خلدون: ج ٦ ص ١٧
(٣) المصدر السابق ص ١٤
(٤) المصدر السابق ص ٧٢ و ٧٣
(٥) ص ٨٨، ٨٩

الأعراب جميعاً على اختلاف أنسابهم كانوا قد تبرموا بالحياة فى مصر وكان لا بد لهم من الهجرة إلى بيئة أخرى تنطلق فيها غرائزهم البدوية . والراجح أن بنى قره كانوا أكثر إغراء لإخوانهم من الخليفة ووزيره . فليس من شك أن اتصالا ما كان قائماً بين عرب العدوتين الغربية والشرقية ، وأن ما كان يتردد فى مضارب البدو فى برقة من أساطير الكنوز القديمة المطمورة فى إفريقية وما وراءها ، كان يجد صداه البعيد فى نفوس الأعراب جميعاً أيا كان مقامهم من النيل [1] .

ولكننا فى الوقت نفسه نخالف هؤلاء المؤرخين ونرى أن هذه الهجرة — أو الغزوة إذا شئت — إنما كانت على موجات بشرية متتابعة ، فان ذلك أدنى إلى منطق النقلة الجماعية فلم يكن الهلالية جيشاً نظامياً يؤمر بالحركة فيأتمر ! وإنما كانوا قبائل كثيرة وكان انتقالهم كـكل هجرة جماعية بطيئاً متثاقلا ولم يتم على دفعة واحدة أو دفعتين فقد استغرق بلوغهم برقة أمداً ليس بالقصير لعله يتجاوز ثلاثة أعوام ، كما أنها لا يمكن أن تكون انتقالا مفاجئاً لأن ذلك لا يستقيم مع الحياة القبلية التى تستلزم النقلة الجماعية وتتجاوز الرجال القادرين على حمل السلاح إلى الشيوخ والنساء والأطفال والدواب والمتاع [2] . أضف إلى ذلك أن المعز بن باديس لم يستشعر الخوف لقدوم الأفواج الأولى من هؤلاء الأعراب ، مما يرجع بأن تغريبتهم كانت فطرية طبيعية لا يكاد يشوبها إكراه أو اصطناع [3] . ولسنا ندرى لماذا لم ينظر المؤرخون إلى الموضوع من زاوية أخرى ، وهى أن مصلحة الدولة فى إبقاء هؤلاء العرب حيث هم فى العدوة الشرقية لا تقل خطراً عن إكراههم إلى النقلة غرباً ، ذلك أن هؤلاء الأعراب كانوا يستطيعون الاحتفاظ بالتوازن كلما اختل بين الجند من الترك أو السودان

---

(١) مارسيه : المصدر السابق ص ٨٨ و ٨٩

(٢) مارسيه : المصدر السابق ص ٩٠

(٣) حسن محمود : المصدر السابق ص ١٨٩

أو المغاربة وكثيراً ما كان يستشرى كل فريق على الآخر، كما أن انشغال الدولة بمشكلات الشرق كان يقتضى احتفاظها بهم فى مواضعهم وعدم السماح لهم باجتياز النيل .

غربت القبائل الهلالية إذن ، ونزحت عن مصر ، بيد أن هذه التغريبة لم تشمل الهلالية قاطبة ، إذ بقيت منهم جموع قليلة بالقياس إلى الذين رحلوا ، لا تزال آثارهم البشرية شاخصة إلى يومنا هذا فى الشرقية [١] ، حيث تجمعوا منذ أمد طويل كما شاهد ابن خلدون [٢] بقاياهم فى الصعيد الأعلى شرقى النيل لم يجوزوه لأن الظروف الطبيعية أقصتهم إلى هناك . فمن المظاهر الواضحة أن الوادى الخصيب لا يتسع فى الجانب الشرقى للنيل إلا عند الصعيد الأعلى . وهذا دعاهم إلى الاقامة والاستقرار والتطور من البدو الضاربين فيما يشبه الصحراء إلى فلاحين يزرعون الأرض ويتجرون فى غلاتها ، وإن احتفظوا باثارة من الفروسية تبدو فى إجادتهم ركوب الخيل وما يشتجر بينهم من فتن وحروب ومنها ما يقع بين أحياء القفر .

اكتفظت إذن برقة بالأعراب الوافدين عليها عشيرة فى أثر عشيرة إلى من كان فيها من بنى قرة أصحاب المنعة والغارة . ونحن لم ننس بعد ماذكره ابن خلدون من أن برقة هذه كانت آخر منازل العرب ناحية الغرب ، فالفتح العربى الأول لم يغير من الصورة البشرية العامة لشمالى أفريقية ، ومبادرة البربر إلى الاستجابة لمختلف النحل والمذاهب إنما يدل على تمكن النزعة الاستقلالية من نفوسهم ، كما أن قيام الدولة العبيدية الشيعية كان تعبيراً صارخاً عن هذه النزعة ، ولكن هذه الدولة لم تستوعب قبائل البربر جميعاً ، بل إنها ما كادت تنتقل ناحية الشرق حتى انفصل عنها هؤلاء البربر وتنازعوا الأمر فيما بينهم ولم تستطع قبيلة من قبائلهم الاستئثار بالنفوذ ، ولكننا مع هذا نستطيع أن نتبين الخطين البارزين فى تلك الربوع ، فقد حلت صنهاجة

(١) Abbas Ammar : المصدر السابق .

(٢) ابن خلدون : ج ٦ ص ٥

محل كتامه وإن انقسمت إلى شعبتين، تحكم الأولى فى القيروان، وتحكم الثانية فى القلعة وإلى جانبهم زناتة التى كانت موالية لأمراء بنى أمية فى الأندلس، لا حباً فيهم، ولكن كراهة منهم للفاطميين أو بتعبير أدق لصنهاجة ومن اليها. ثم ما لبثوا أن جهروا هم أيضاً باستقلالهم [١].

ويقال إن هؤلاء الهلالية تقارعوا على البلاد أول قيامهم بتغريبتهم هذه وقسموها على أساس الشعبين الكبيرين اللذين تتألف منهما سائر قبائلهم، وهما سليم وهلال، اختص الأول بالشرق والثانى بالغرب [٢]، ولكن هذه الرواية لا تستقيم مع الهجرة غير النظامية التى كانوا يسيرون فى مجالها، وأغلب الظن أنها انتحلت بعد حدوثها بزمن لأنها تتفق مع النتائج التى انتهت اليها الأحداث لا مع مقدماتها. ولما غربت جموعهم بقيت منهم بقية فى برقة أغلبها من سليم وأحلافها رواحه وناصره وعمره [٣].

وكانت المرحلة الأولى فى هذه التغريبة ديار المعز بن باديس الصنهاجى. ويتفق كثير من المؤرخين [٤] على أن اتصال العرب الغازين أو المهاجرين بهذه الدولة الزيرية كان وديا أول أمره لأن المعز أراد أن يستظهر بهؤلاء العرب على قبيلة من صنهاجة فى داخل إمارته وعلى منافسه فى خارجها الذى يمثل الشعبة الثانية من الملك الصنهاجى فى القلعة. وهذا هو الباعث الذى دعا العرب إلى التجمع فى أرباض حواضره، ولكن المهادنة بينه وبينهم لم تكن لتستمر طويلا على الرغم من إحسانه اليهم وإصهاره إلى أميرهم، فقد أتوا على كل ما تصل اليه أيديهم إطعاماً لذواتهم ودوابهم حتى اشتد بلاؤهم ولم يكن من مدافعتهم بد، فجمع المعز عسكره وعبيده واستنفر عمه صاحب القلعة،

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية : مادة بربر (الترجمة العربية) ج ٣ ص ٥٠٥، ٥٠٦ وكاتب المادة هو رينه باسى René Basset

(٢) ابن خلدون : ج ٦ ص ١٤

(٣) المصدر نفسه ص ١٤

(٤) ابن خلدون : ج ٦ ص ١٤، ابن عذارى : ص ٣٠١، ابن الأثير : ج ٩ ص ٣٨٨

وإن كانت بينهما خصومة ، فكتب له الكتائب واستغاث ببعض أمراء زناتة فشدوا أزره حتى ليقال إن جيشه بلغ ثلاثين ألف فارس [١] ويبالغ بعض المؤرخين ويذهب إلى أنهم كانوا نيفاً وثمانين ألفاً [٢] . أما العرب فلم يكونوا أكثر من ثلاثة آلاف فارس [٣] . والتحم الفريقان عند حيدران فدارت الدائرة على المعز وجنده ومنوا بهزيمة منكرة وغنم العرب كل ما كان معهم « فلم يخلص لأحد منهم عقال بعير [٤] » .

ومن الملاحظ التي تستوقف النظر في هذه الوقعة أن أعقاب عرب الفتح الاسلامي الأول الذين كانوا في جيش المعز تخاذلوا وانضموا إلى الهلالية بفعل العصبية التي تربط بينهم [٥] ثم كانت وقعة القيروان فقد حاصرها العرب وأهلكوا ما حولها من الضواحي والقرى ونهبوها حتى فر أهلوها إلى تونس في رواية وإلى المهدية في رواية أخرى [٦] ولم تجد المعز الأسوار والمسالح التي شادها للوقوف في وجه العرب الذين أخذوا يغلبون على القرى المحيطة بالقيروان ويهدمون الحصون والقصور ويقطعون الثمار ويتلفون الأنهار [٧] وغلبت العرب على سائر مدن المغرب . ولكنهم كانوا يؤثرون الحياة في الأرياض والضواحي ويملكون على الأمصار أمراء من أهلها يرهبونهم ويدفعون الإتاوة لهم . فعلوا ذلك بباجة وتونس وقسطينة واقتسموا بلاد أفريقية فيما بينهم ، فكان لزغبة طرابلس وما يليها ، ولمرداس بن رباح باجه وما يليها [٨] . ويضيف ابن خلدون أنهم اقتسموا البلاد ثانية فكان لهلال من تونس إلى الغرب [٩]

(١) ابن خلدون : ج ٦ ص ١٥ .
(٢) ابن عذارى: ص ٣٠٢
(٣) ابن خلدون : ج ٦ ص ١٥ ، ابن عذارى ص ٣٠٢
(٤) ابن عذارى : ص ٣٠٢
(٥) ابن خلدون : ج ٦ ص ١٥
(٦) المصدر نفسه .
(٧) ابن الأثير: ج ٩ ص ٣٩٠
(٨) المصدر السابق .
(٩) ابن خلدون : ج ٦ ص ١٥

ولكنه لم يبين لنا من الذين غلبوا على الربوع من تونس إلى الشرق . وأراد المعز النجاة بنفسه فأنكح ثلاثة من أمراء الهلالية ثلاثاً من بناته [١] وحاول تميم بن المعز صاحب الأمر فى المهدية ، أن يستعين بأصهاره العرب فأبت ذلك عليه رعيته وجنده من السودان فدخل الهلالية القيروان واستباحوها واستصفوا ما كان لآل بلكين فى قصورها من النفائس والذخائر . . . [٢] .

ثم ارتحلوا إلى المهدية فنزلوها وضيقوا الخناق عليها بمنع المرافق وافساد السابلة . وإذا كانت الدولة الزيرية الصنهاجية قد استمرت بعد هذه الأحداث الجسام فالفضل فيه لمهادنتها العرب وتقربها منهم حتى أصبحت إمارة فى حمايتهم .

وانتقلت جموع الهلالية إلى المرحلة الثانية من هذه التغريبة فتجاوزت صنهاجة إلى زناتة ونازعوهم على الضواحى واتصلت الحروب بينهم . وأهم وقائعهم ما كان منها مع صاحب تلمسان وهو من أعقاب محمد بن خزر [٣] ووزيره أبى سعدى خليفة اليفرنى والتى انتهت بقتل هذا الأمير وسادات قومه ثم استمرت المشاهد والأيام بين الهلالية وزناتة سجالا ولم يكن هذا القبيل البربرى أحسن حظاً من صنهاجة . ويذهب ابن الأثير إلى أن غزوة العرب زناتة لم تكن من وحيهم وإنما كانت من وحى صنهاجة المغرب الأوسط أصحاب القلعة ، فقد ذكر أن بلكين قاد العرب فى حربهم زناتة ولم يزد على أنه غلبهم وأحدث فيهم مقتلة عظيمة [٤] وأما ابن خلدون فقد سكت ولم يشر إلى شىء من ذلك فى حديثه عن أصحاب القلعة هؤلاء . ومهما يكن من شىء فإن هذه الشعبة الصنهاجية الزيرية فى المغرب الأوسط لم تنقطع لحظة عن مدافعة

---

(١) ابن خلدون : ج ٦ ص ١٥ و ١٦

(٢) ابن خلدون : ج ٦ ص ١٦

(٣) وكانت ديار بنى خزر هؤلاء تمتد على سهول أوربة وشرق مراكش وكانوا أقيالا للأمويين فى قرطبة . . . دائرة المعارف الاسلامية . النسخة الانجليزية . ج ٤ مادة زناتة .

(٤) ج ٩ ص ٣٩٠

وزنانة والعمل على إضعاف شوكتها . ولسنا نستطيع أن نرفض قول ابن الأثير إذا لاحظنا أن الهلالية كانوا بعد أن غلبوا على الأمصار قد أصبحوا أقرب إلى الجند المرتزقة ينضمون لأى فريق يوسع لهم فى الأمانى أو يجزل لهم فى الأعطيات .

وهكذا تم الغلب للهلالية على صنهاجة وزناتة جميعاً . ولكن العجيب أنهم لم يؤسسوا ملكا ولم يشيدوا دولة [1] . وهذا هو الفارق الجوهرى بينهم وبين الفتوح العربية الأولى يجعل الذين يوازنون بين الحركتين لا يقيمون الموازنة على أساس صحيح ، فعرب الفتح كان يحركهم مثل يريدون تحقيقه . أما هؤلاء الأعراب فلم تكن تحركهم إلا غرائزهم ، لذلك طالما كانوا منقسمين يؤثرون الضواحى والأرباض على الأمصار ويفضلون البداوة الجافية والنقلة المستمرة على الحضارة والاستقرار . وكانت عصبيتهم أقوى من أن تتحول إلى وطنية مرتبطة بإقليم أو رقعة محدودة من الأرض. وإن فعلت شعب منهم ذلك ، تسربت فى غيرها واستمرت جموعهم تدور بين المصايف والمشاتى تنتجع الجزر الخضراء وتقطع الطريق على السفر والتجار وتغير على السابله ، ويستأجرها أصحاب السلطان فى التمكين لأنفسهم ومدافعة خصومهم . وقد حاول ابن خلدون فى غير موضع أن يتبين أنسابهم ، فرأينا أن نجمع ذلك فى شجرة واحدة تدل على الأصول والفروع ، ونشير إلى مدى القرابة والصلة بين مختلف العشائر والبطون .

وإذا كان لهذه الهجرات الهلالية التى اتخذت مظهر الفتح من أثر فى شمالى إفريقية ، فهو العمل على تغريب هؤلاء البربر ، ذلك لأن الفتح الاسلامى الأول ، و إن طبعهم بالدين واللغة ، إلا أنه لم يسطهم بالدم العربى . فعدلت الغزوة الهلالية تعديلا جنسياً

(١) ولا عبرة بما فعله بنو جامع — وهم من رياح — فى تأسيس إمارة لهم بمدينة قابس أو تشييد حصن أو مسلح فى المعلقة على خرائب قرطاجنه القديمة . مارسيه فى (دائرة المعارف الاسلامية النسخة الانجليزية ج ٣ مادة رياح) .

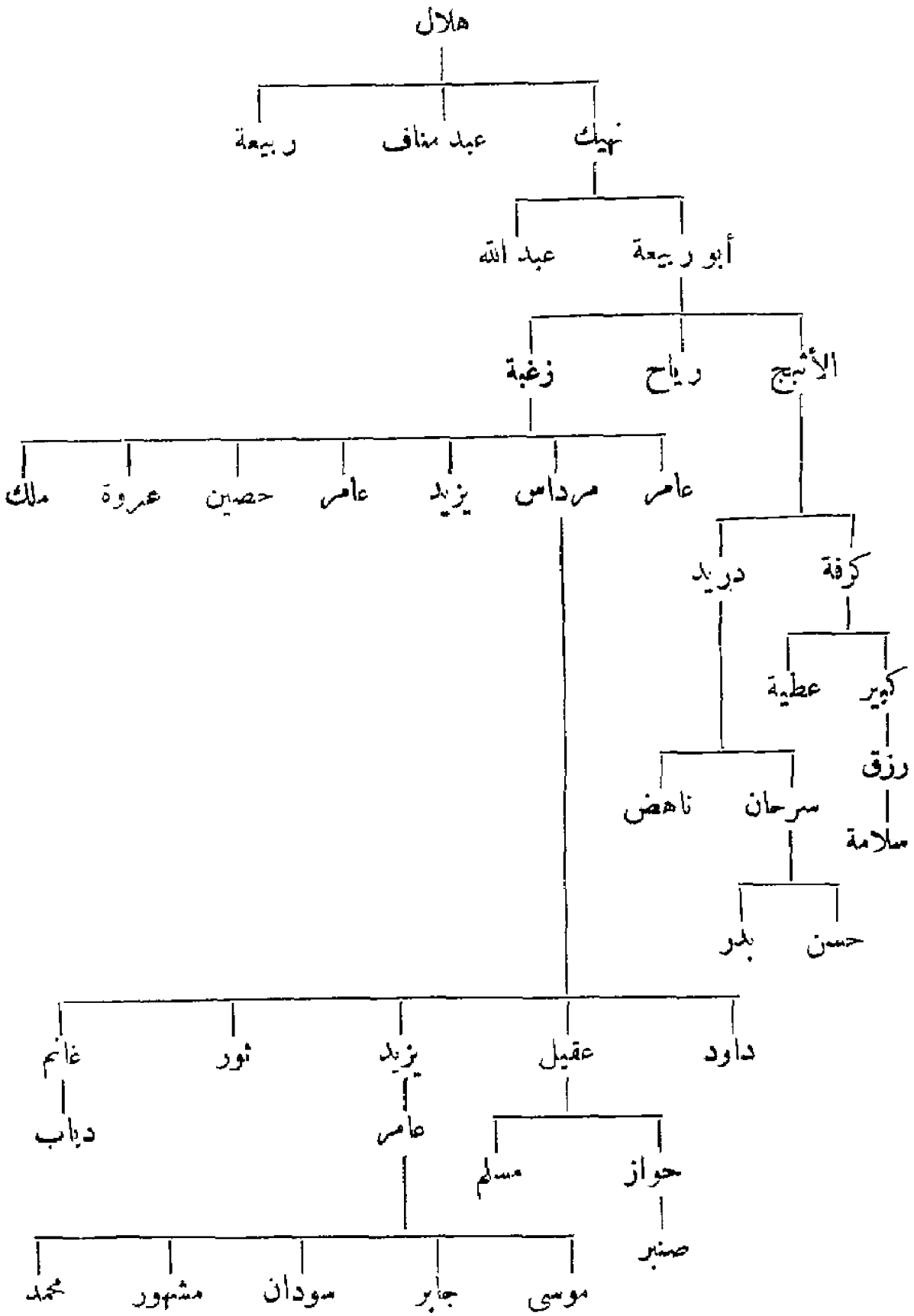

« هلال » شجرة النسب الخاصة به .

أو عنصرياً فى السكان جميعاً ، حتى أصبح الأثر البربرى القديم لا يلتمس إلا فى معاقل طبيعية ضيقة ولا يميز إلا ببعض الظواهر اللسانية العامة [١] .

ونحن نستنتج من هذا كله أن الهلالية هؤلاء كانوا من الممعنين فى البداوة المعتزين بالعصبية ، لأنهم كانوا يقاومون عوامل الاستقرار والاندماج . وأنهم لم يتغيروا فى جميع المسارح التى حلوا فيها فقد كانوا فى نجد والعراق والشام ، كما كانوا فى مصر وإفريقية وبلاد المغارب . وكانت صلاتهم بالدول النظامية وأصحاب السلطان سلبية تقوم على طلب الانتفاع بأية وسيلة كانت . وهم يمرون بصور الحكم مرورهم بمذاهب الاجتماع والدين ، لا يؤمنون بشىء منها . ينصرون فريقاً ثم يخذلونه ، ويعدون فريقاً آخر ثم يخفرون به ، ويتحولون بين القرامطة والشيعة وأهل السنة ، تحولهم بين المصريين والبربر والسودان ويسيرون وراء قادة من الأعاجم والأتراك . ولكن مما لا ريب فيه أن هجراتهم منذ خرجوا من نجد إلى أن تفرقوا فى بوادى إفريقية وتلالها تؤلف وحدة قائمة برأسها على الرغم من حدوثها على فترات كثيرة يتقارب بعضها ويتباعد بعضها الآخر ، لأنها اتخذت سبيلها فى اتجاه واحد ناحية الغرب . ولا عبرة بتلبثها فى مراحل من الطريق ، ولو طال هذا التلبث قرناً أو يزيد ، لأن ذلك لم يغير من فطرتها ولم يبدل فى اتجاهها . ومن ثم كان إطلاق التغريبة على هذه الحركات البشرية مسايراً للواقع .

وإن الباحث لا يستطيع مهما يجهد أن يقدم صورة مضبوطة لهم إذا هو درس امتدادهم فى المكان أو الزمان فحسب . وما تكمل الصورة إلا إذا نظر إلى روح الجمع الهلالى التى لم تتغير فى جميع المراحل والأجيال .

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية « مادة بربر » الترجمة العربية » ج ٣ ص ٥٠٨

الباب الرابع

مقومات النفس الجماعية

لا مجال لتكرار القول بأن علم النفس يتفرع إلى شعبتين ، تعرض الأولى للأفراد وتتبع نزعاتهم وأهوائهم ومجالات مشاعرهم وأفكارهم وما لهذا كله من الأثر فى شخصيتهم وألوان سلوكهم . وتعرض الثانية للجماعات وتفسر ذاتياتها المختلفة وأهواءها المتباينة وما يرسب فى أطوائها من تراث الأجيال وما تنزع إليه واعية أو حالمة وتشرح أعمالها على هدى الدراسة المتأملة البصيرة . وكما أن هناك ضربين من علم النفس الفردى ، أحدهما وصفى والآخر تحليلى فكذلك لعلم النفس الجماعى ضربان ، أحدهما وصفى والآخر تحليلى أيضاً يعالج الأول اتجاهات جماعات بعينها بقصر أثرها ، وهو يساير التاريخ فى ذلك ، ويحاول الثانى أن يحلل تلك الاتجاهات ويتعرف إلى مصادرها وبواعثها ، ويخط القوانين العامة التى تخضع لها هذه الجماعات فى النشأة والتطور جميعاً [١] . وهذا الضرب الثانى أحدثهما وهو يكاد يحل على الأيام محل فلسفة التاريخ . ولعله قد أصبح الآن أهم ما يعنى به علم النفس الجماعى بأسره . أضف إلى ذلك أن علم النفس الفردى لا يستطيع أن يقوم بمهمته فى تشخيص الفكر إلا إذا أدرك البواعث الجماعية التى أنشأت هذا الفكر الفردى وما رسّبته فيه مما تسرب فى جبلته أو غريزته أو بقى يخالط الوعى ويقيد الارادة ويحدد السلوك . وسنؤثر هذا الضرب فى تحليل المقومات النفسية للجماعة الهلالية مستهدين بما مرّ بنا من تاريخهم ومستقرئين الروايات المتناثرة فى بطون الكتب والمدوّنات وإن كانت

---

(١) The Group Mind ; W. Mcdougall ص ١٠٤

عامة لا تميل إلى التخصيص إلا قليلا . ولن نلقى بالنا بطبيعة الحال إلى أنظار أولئك الذين اعتمدوا على فلاسفة القرن التاسع عشر من الأوربيين الاستعماريين فى تقسيم البشر إلى أجناس قائمة برأسها يمتاز بعضها من بعض بخصائص لاتجعلها متفاوتة فى النوع بحسب ، ولكنها متفاوتة فى الدرجة أيضاً ، لأن هذه الأقوال أدخل فيما عرفه تاريخنا بالشعوبية التى تقوم على منافرات تبعدها عن الحقائق العلمية الرصينة .

ونرى لزاما علينا قبل أن نمضى فيما نحن بسبيله من العرض والتحليل ، أن نصنف الجماعات تصنيفاً نفسياً لنضع الهلالية فى مكانهم بين سائر الجماعات . ويختلف التصنيف باختلاف الأساس الذى يبنى عليه . من ذلك ما يحتفل بالعنصر الزمنى فيقسم الجماعات إلى مؤقتة تتفاوت أعمارها ، وإلى دائبة ، أو بتعبير أدق ، مستمرة لأنها مهما طالت قصيرها إلى تحوّل أو زوال ظاهرى . ومنه مايحتفل بنوعها من طبيعية توجد كما توجد الكائنات الحية بالتوالد والنمو ، أو مصطنعة تجتمع بالصدفة ومحض الاتفاق أو تجمع كرها أو استهواء ، ومنها ما يقوم على الغاية من فطرية لاهدف لها إلى غاية تقصد إلى غرض معين [1] . والهلالية بالبداهة جماعة مستمرة عاشت أجيالا وقروناً متطاولة لايعرف أوائلها بالتحقيق ولايمكن أن يشار إلى أواخرها ، فقد ظهروا على مسرح الحياة فتأثروا بها وآثروا فيها وعاش فيهم غيرهم كما عاشوا فى غيرهم . ثم هم إلى ذلك جماعة طبيعية نشأت نشأة تلقائية لم توجد بينهم إرادة البشرية ولم يجمعهم وعى متعمد ، وما رأيناه من تدخل بعض الارادات فى تفريقهم أو نقلتهم — إن صح ذلك — لايمكن أن يخرجهم من صورتهم الطبيعية المتبلورة إلى صورة أخرى . وهذا يستتبع القول بأنهم جماعة لاغائية ، يصدرون فى أعمالهم الجماعية المشتركة عن الفطرة والغريزة . ولم يرسم لهم هدف محدود يرمون اليه منذ وجدوا على الأرض وأرادات أمرائهم وزعمائهم لايمكن أن تتعدى المجال الحيوى الفطرى بحال من الأحوال .

(١) The Group Mind : W. Mcdougall ص ٧٦ و ٨٩ و ٩٢

وقد استخلصنا من الفصول السابقة أن الهلالية حتى قبل أن يدخلوا التاريخ من أوسع أبوابه — كما يقولون — كانوا جماعة من الرعاة قد ساروا فى مدارج التقدم شوطاً أو شوطين وأن منازلهم متبدية جافية غير ذات مطر كثير . وأرضهم تناقض الغابة من حيث انكشافها ، وتعرض الأحياء فيها للأخطار المتجددة أبدا . وما نظن أن الصراع بين الانسان والطبيعة يبدو فى صورة أبرز من صورته هناك ، فالجدب يعتورها بين حين وحين . والانسان الذى لا يستطيع أن يعتمد فى حياته على الكلأ والعشب وحدهما يتألف الأنعام ويعتمد عليها فى جميع شئونه . ولعل أصدق صورة لهم هى التى ذكرها ابن خلدون فى كتاب العبر ، وقد رأى أعقابهم فى شمال أفريقية ومصر وبلاد الشام ، وإن عمم الصورة على العرب جميعاً قال : « إن العرب (وهى صورة صادقة عن الهلالية وأحلافهم) منهم الأمة الراحلة الناجعة ، أهل الخيام لسكناهم والخيل لركوبهم ، والأنعام لكسبهم ، يقومون عليها ويقتاتون من ألبانها ، ويتخذون الدفء والأثاث من أوبارها وأشعارها ، ويحملون أثقالهم على ظهورها يتنازلون حالا [1] متفرقة ويبتغون الرزق فى غالب أحوالهم على القنص ، ويتقلبون دائماً فى المجالات فراراً من حمارة القيظ تارة وصبارة البرد أخرى ، وانتجاعا لمراعى غنمهم ، وارتيادا لمصالح إبلهم الكفيلة بمعاشهم وحمل أثقالهم ومنافعهم ، فاختصوا لذلك بسكنى الاقليم الثالث ما بين البحر المحيط من المغرب إلى أقصى اليمن وحدود الهند من المشرق ، فعمروا اليمن والحجاز ونجدا وتهامة وما وراء ذلك ، كما دخلوا إليه فى المائة الخامسة كما ذكروه من مصر وصحارى برقة وحولها وقسطنطينية وافريقية والمغرب الأقصى والسوس لاختصاص هذه البلاد بالرمال والقفار المحيطة بالأرياف والتلول والأرياف الآهلة بمن سواهم من الأمم فى فصل الربيع وزخرف الأرض لرعى الكلأ والعشب فى منابتها والتنقل فى نواحيها إلى فصل الصيف لمدة الأقوات فى سنتهم

(١) هكذا فى النص .

من حبوبها ، وربما يلحق أهل العمران أثناء ذلك مرات من أضرارهم بافساد السابلة ورعى الزرع مخضراً وانتهابه قائماً وحصيداً إلا ما حاطته الدولة وذادت عنه الحامية فى الممالك التى للسلاطين عليهم فيها ، ثم ينحدرون فى فصل الخريف إلى القفار لرعى شجرها ونتاج إبلهم فى رمالها وما أحاط به عملهم من مصالحها وفراراً بأنفسهم وظعائنهم من أذى البرد إلى دفء ماشيتها فلا يزالون فى كل عام مترددين بين الريف والصحراء ما بين الاقليم الثالث والرابع صاعدين ومنحدرين على ممر الأيام[1] .

وليس يغرب عن البال أن هناك فريقين من الهلالية ، الفريق الأول أولئك الذين تداعوا إلى الحلف العام وكوّنوا ما نستطيع أن نسميه القوم وشاركوا فى حركة التوسع التى نزعت إليها هذه الأمة الجديدة واستقروا فى ديار أخرى بعيدة عن ديارهم الأولى وساطوا غيرهم بدمائهم فى أجيال متعاقبة متطاولة على الرغم من العامل البيولوجى القوى الذى يمنعهم فطرة من الاصهار إلى غيرهم من الاجناس الأخرى . وحدث لهم التحول فى الصورة العامة فانقلبت خصوماتهم التى كانت تقوم بين وحداتهم الأولى إلى خصومات أخرى فى سبيل السيادة أو الغلب فى الأمة الجديدة ومارسوا أعمالا أخرى لم تكن تؤهلهم لها منابتهم . ونحن نخرج من حسابنا التجارة لأنها من الغرائز الغالبة على البدو جميعاً . ونذكر الزراعة لأن بعض أجيالهم أخذت بها على الأيام وكوّنت ما كان يسميه أرسطو : «المزارع المتنقلة»[2] . ثم درجوا على المزارع الدائمة وأخذوا بأسباب الاستقرار وهجنوا الحضارات التى بنوا بها وأوجدوا حضارات أخرى فيها سمات جديدة إلى جانب سماتها القديمة . ووسعوا من الأفق النفسى للاقوام الذين امتزجوا بهم ، ولسنا نزعم أنهم دفعوا هذه الأقوام إلى الرقى لأن ذلك مردود . ولكن الذى نستطيع أن نزعمه أن الأجيال التى نشأت من هذا الصهر كانت أقوى من تلك الأمم شكيمة

---

(١) ابن خلدون : العبر .

(٢) Mayors المصدر المذكور ص ١٦

وأشد صراساً . والفريق الثانى من الهلالية أولئك الذين ظلوا فى ديارهم الأولى أو حلوا ديارا أخرى قريبة الشبه بها واستمروا على خصائصهم القرون المتطاولة ولم يتحولوا عن بداوتهم ولم يصهروا إلى غيرهم وظلت حالهم كحال الجاهليين ، ولولا أن اصطلاح الجاهلية قد اكتسب فى الاستعمال التاريخى والدينى معنى آخر غير معناه الحسى الأول لظللنا نطلقه عليهم . من أجل هذا نرى من الواجب أن نستخلص الخصائص النفسية المشتركة بين الفريقين وإن كان بعضها قد كمن فى الأولين ولكن كمونه لا يعنى فناءه .

وأول ماتجدر الاشارة اليه ، هذا النظام البطرقى — الأبوى إذا شئت — الغالب على الجماعة الهلالية ، وهو الذى نعرفه بالعصبية والذى يجعل من هؤلاء الناس مهما تكاثروا ، أسرة موحدة متجانسة تتخذ كما يقول الاجتماعيون الشكل الهيراركى الهرمى على قمته الزعيم القائم بينهم ، وهو أبوهم حقيقة حتى إذا انضمت الوحدة إلى غيرها ، كانت هذه الأبوة مدعاة لأكثرهم قبيلا وأعزهم نفراً ، وأصبح هذا الرئيس الجديد أباً للوحدة الثانية كما هو أب للأولى ، له جميع الحقوق على الفروع غير المنحدرة من صلبه ، وعليه جميع التبعات التى للوالد على التحقيق من الرعاية والحماية والتكفل بالمصالح . وهذه العصبية البطرقية تكسب الجماعة الهلاليه لوناً قوياً من التماسك وتمنحها القدرة على الاستمرار ، وهى تباين من وجوه كثيرة ، العصبية الاقليمية أو الحرفية . ومن ثم كان أول طابع نفسى نلمحه هو التعصب العنيف للجماعة أو القبيل ، فهو أخطر من تعصب الفرد لأسرته المحدودة فى مجتمعنا الحديث لما يكسبه التآزر من البأس والمنعة ويندرج فى هذه الهيراركية البطرقية الأنساب ، فكما أن الجيل القائم المكون للوحدة الجماعية الهلالية الشاخصة يؤمن بالأبوة الحية فى صورة الزعامة أو الإمارة أو المشيخة أو ماشئت من هذه الألقاب والمصطلحات ، فان كل جماعة من الجماعات الهلالية تحافظ على الوحدة بين سائر أجيالها القائمين والغابرين ، احتفاظها بالوحدة القائمة الحاضرة ، على نفس النسق الأبوى ، فتذكر أنسابها وترتفع بهم إلى مدى بعيد . ولهذه الأسباب

وظيفة أخرى ، ذلك أنها تؤلف بين سائر الوحدات فى مجموعات أكبر فتشتد بذلك العصبية وتعنف ، فيصدر عنها أحياناً كثيرة من الشغب ما يسلكها مع الغوغاء المتجمهرين من حيث الطابع النفسى .

وتهدينا هذه العصبية الأبوية إلى طابع آخر يلوّن المجتمع الهلالى وغيره من مجتمعات الأعراب ، فالرجل أبرز من المرأة وأظهر ، فهو القوّام على الأسرة الصغيرة قوامة الأمير أو الشيخ على الجماعة الكبيرة وهو المسئول عن عياله ، وهو المطالب بالثأر والدية ، وهو صاحب الرأى الأول والكلمة النافذة . وكانت المرأة تابعة له تقيم فى كنفه وتحت حمايته وإمرته ، وهو الذى يقوم عنها بمصالحها على الرغم من إعطائها الحقوق المدنية فى الشرع الإسلامى . ونحن إذا أمعنا النظر فى آيات القرآن الكريم نستهديها صورة المجتمع العربى العام ، والهلالية فرع منه ، فإننا نجد فى الأغلب الأعم أن الخطاب كان يوجه إلى المذكر مفرداً وجمعاً [1] ، كما أننا نجد هذا التفاوت فى اللغة العربية نفسها ، فهى تستعمل جمع المذكر للجماعة المختلطة ، وتستعلى فى الحركة عند التذكير وتتسفل عند التأنيث ، بل وتسوى بين الأنثى والجماد ، كما أن العبارات الموضوعة لبيان العلاقة الأسرية تميز الرجل وتدل على الطابع الأبوى الذى ذكرناه مثل كلمة رب وكلمة بعل [2] وما اليهما . وقد أعطى هذا ، الذكور فى المجتمع الهلالى ، الطابع النفسى الثانى وهو الاستعلاء على الجنس الآخر . فإذا أضفناه إلى العصبية السابقة ، وجدنا الرجل منهم أو اليافع وقد جبل على اعتزاز مزدوج . اعتزاز بذاتيته فى قبيلته ، واعتزاز بها خارج هذا القبيل . ولكن هذا لن يكسبه ، كما سنوضح بعد ، التفرد المألوف فى مدنيتنا الحاضرة ، على أن المرأة لم تكن مع هذا كله مفقودة الشخصية إلى جانب الرجل ، ولكنها كانت على تبعيتها له برزة سافرة

---

(١) محمد عزة دروزه . عصر النبى وبيئته قبل البعثة ، ص ١٢٩ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية ، مادة «بعل» .

غير منعزلة ، وكثير ما شاركت فى الشئون العامة للقبيلة وكانت لها وظائف جماعية أخرى تقوم بها كالاستنفار إلى القتال والحث عليه وتقريع المتخلف عنه أو الهارب منه . كما أن أفراداً منهن ، وهذا يثبت القاعدة الأولى ولا يبطلها ، كنّ يقمن بمصالحهنّ جميعاً دون وساطة الرجال أو يتجاوزن المشورة إلى المساهمة الإيجابية فيما تعرض له الجماعة من مشكلات .

وإذا دققنا النظر فى هذه الجماعات الأعرابية لنتبين مدى علاقات الرجل بالمرأة ، فإننا نجد أن العصبية الأبوية القائمة على قرابة الأصلاب قد كيفت هذه العلاقة ووسمتها بميسمها ، آية ذلك بروز القواعد الاجتماعية التى تنظم الصلات بين الذكور والأناث فيما يتصل بمسائل النكاح . ونحن نعلم أن كل مجتمع تضبطه تلك الصلات بما ترسبه فى العرف العام من شعائر تختص باختيار الشريك ذكراً كان أو أنثى ، وبعض هذه الشعائر داخلى يحرم على أفراد الجماعة الاصهار إلى جماعة أخرى ، حماية لخصائصها البيولوجية فى مضمار التناحر على البقاء والاحتفاظ بالأصلح من الصفات الجثمانية والعقلية معاً . وبعضها الآخر خارجى يحرم على أفراد كل جماعة البناء بأجيال معينة من الأقرباء إبقاء على الأنساب وتقويماً للغرائز والرغبات[1] . فالاختيار أو الانتخاب محصور فى هاتين الدائرتين لا يمكن أن يتعداهما إلا شذوذاً . وهو موكول فى العادة إلى الذكر دون الأنثى ، فعليه أن يتخير أو ينتخب من قبيلته أو عشيرته أو حيه ، وأن يرغب عن أجيال بذاتها من ذوى قرباه . وكلما التحمت الجماعة بجماعة أخرى والتمست الاثنتان أباً أبعد من أبويهما ، كان من اليسير على أفرادهما أن يصهر بعضهم إلى بعض . وليس معنى هذا أن الصهر محرم تحريماً باتاً بين كل الجماعات غير المرتبطة برباط النسب ، فكثيراً ما حدث زواج سياسى تأليفاً للقلوب المتباعدة ، وتسكيناً للخواطر الثائرة ، وإقراراً للسلم بين متخاصمين . زد على ذلك أن الحفل

(١) أ . وسترمارك . الزواج ، ترجمة كاتب هذه السطور ص ١٦ — ١٩

الذى يقوم بوظيفة الاشهاد الاجتماعى ، يدل على ما للذكر من امتياز على الأنثى ، فهو الذى يذهب فى أشياخ حيه خاطباً ، ويكون توجهه إلى الرجال القوامين على من يريد أن يبنى بها [1] ، ولا تخلو خطبة النكاح من اعتزاز بالآباء والأجداد . كما أن بعض العادات الملابسة لهذا الحفل ، تشير بوجود آثار من عهد الزواج بالأسر أو الزواج بالشراء . والسبى والاسترقاق معروفان متداخلان فى تلك الجماعات التى تعيش على الغارة والقتال .

وإذن فروح الجماعة تسيطر على جميع تصرفاتها فى الداخل وفى الخارج ، وترسم لها البواعث والأهداف ، وتقيد سلوكها أفراداً وقبيلا ، وهذا يقربها فى التصنيف النفسى إلى الجيش النظامى المندرج فى القيادة على النظام الحربى نفسه ، والمحتفظ فى تاريخه بأمجاد يعتز بها ويفاخر سائر الجيوش . وكل فرد فى مثل هذه الجماعة ، إنما هو صورة مصغرة لها يحس باحساس الجميع ، ويقوم من غيره مقام الأخ يحميه ويهتم بكل ما يصدر عنه ، فالعمل الفردى يجر دائماً أبداً إلى عمل عام . ومن ثم كان كل واحد يصدر عن رقابة جماعية متيقظة فى داخل ذاته وخارجها على السواء . وإذا اتفق له أن لقى أفراداً من غير قبيلته فانه لا يتعرف اليهم أو يهتم بالتعرف اليهم بالذاتية الخاصة لكل منهم ، وإنما يلقى باله كله إلى القبيلة التى ينتسبون اليها فيقبل عليهم أو ينفر منهم تبعاً للعلاقة القائمة بين قبيلته وقبيلتهم . وهكذا تفنى مسئولية الفرد وتحل محلها المسئولية العامة المشتركة . وتتحدد الخصومات الخارجية أو الداخلية وفقاً لهذه المسئولية المشتركة وما يعتورها من قوة أو ضعف . وروحها المعنوى من هذه الناحية أقوى من الجيش وأكثر تماسكا لأن الآصرة التى تجمع بين الآحاد أدخل فى الطبيعية وأبعد عن الافتعال وألزم للحياة . وهذه الشخصية الجماعية تصب الأفراد فى قالبها صباً ، فهى لا تفتح الشخصية الفردية

---

(١) الآلوسى ، ج ٢ ص ٣ ، ٦ ، ٩

بل لا تحاول إنتاجها . وما نراه من امتياز بعض الآحاد وتبريزهم واحتلالهم مكان الصدارة فى الكيان الجماعى بأسره ، لا يعنى أنهم أفراد ذوو خصوصية ، وإنما يعنى أنهم صور مجسمة من الآحاد العاديين ، وما أكسبهم التقدم أو التبريز ليس هو التفرد بغير المألوف ولكنه التفوق فى القيام بعمل شائع يجاوز به قدرة الأوساط العاديين .

ومما يقطع بهذه المسئولية المشتركة ما أثر عن القبائل بعامة من الخلع [1] ، فقد يعنّ لهم أن يخلعوا أحد أفراد القبيلة لخروجه عن العرف العام الذى يعرض حياة القبيلة أو كرامتها للخطر والامتهان فيقولون إنهم يخلعونه لكيلا يؤخذ بجريرته أو جنايته ، والمعنى المستفاد من هذا أنهم يبرئون الجماعة منه بحيث تصبح غير مسئولة عنه مسئوليتها عن جميع الآحاد المنتسبين إليها . والعادات المتصلة بهذا التصرف لا يمكن أن تتم إلا إذا استكملت شرط العلنية لأنه حكم يشبه « الموت المدنى » فى مجتمع يقوم بهذه الآصرة العامة ولا يقوم بسواها ، وقد نبئنا أن الخلع إنما يكون حيث التجمع ، ولا نقصد به تجمع الوحدة الجماعية فحسب ، ولكنا نقصد به تجمع وحدات كثيرة فى المواسم والأسواق ويكون بالاشهاد الواجب فى المعاملات ، ويفقد المحكوم عليه بها الحماية العامة المماثلة « للجنسية » فى مجتمعاتنا الوطنية ، وما يترتب على ذلك من مزايا وحقوق وتعرض حياته للخطر ولا دية له إذا قتل . وتتصرف الوحدات الأخرى معه تبعاً لما بينها وبين قبيلته من حلف أو خصام ، فتنكره أو تحميه ويعرف الواحد منهم « بالخليع » — أى المخلوع — وهو أصل المعنى الدائر الآن على الألسنة والأقلام ، ولعل هذا التحول جاء عن بعض البواعث فى الخلع ، كالمجون أو الغلو فى الشراب أو التهتك ، وهذا العرف المرعى يرفع مستوى الخلقية العامة فى القبيلة ويحرم الخيانة العظمى ويذود عن التماسك الواجب فى هذه الجماعات التى لا يمكن أن تعيش فى بيئتها إلا متساندة متآزرة .

---

(١) الألوسى : بلوغ الأرب ، ج ٣ ص ٢٧

ولا يخرج على العصبية البطرقية أو القرابة الأبوية ما استنته القبائل من الحلف [١] فكثيراً ما ارتبطت القبائل به ، وهو عبارة عن ميثاق يتعاهدون فيه أن يكونوا صفاً واحداً متساندا ، ينفرون إلى القتال معاً ويحتملون الديات معاً ، ويأخذون بثارات بعضهم بعضاً . ويؤلف هذا الحلف اتحاداً فيه ملامح من عصبية النسب ، وربما اعتمد على هذه العصبية فى وجوده فبعث ما درس منها أو انتحلها تقوية للآصرة وتوسيعاً لدائرة المسئولية الجماعية المشتركة ، وتكون صلة المرء بهذا الاتحاد كصلته بقبيلته ، يتعصب له ويذود عن كل امرىء فيه ، وقد تقوى هذه العصبية الجديدة حتى تدفع العصبية الأولى إلى ما يشبه الكمون أو الاضمار فى إخلاد الأجيال ، فاذا وهن الحلف لسبب من الأسباب عادت العصبيات الأولى للظهور واختصمت الوحدات فيما بينها ، وقد تظل النفرة قائمة بين أجزاء الحلف الواحد ، شغلهم عنها خطر مشترك إلى حين ، فاذا انقضى ، انفرط الحلف ، أو بقى اسماً لاسلطان له ، ومن اليسير أن نميز فى كثير من تلك الأحلاف ، النماذج الدوال على وحدانهم الأولى فى التخلق والسلوك .

وتبدو روح الجمع هذه واضحة جلية فيما عرف بالجوار [٢] ، فقد كان من العرف المتبع أن يطلب امرؤ إلى آخر فى غير قبيلته لسبب من الأسباب أن يجيره ، أى يحميه ويدفع عنه ماهو متعرض له من الحيف ، وليس يتم ذلك إلا على ملأ من الناس لما يترتب عليه من التبعات العامة ، ذلك لأن المستجير سيصبح بهذا الجوار ذمة فى عنق القبيلة كلها ، تدفع عنه ماتدفعه عن آحادها ، والخفر بالجوار خيانة قومية تنكرها الجماعة وتنفر من مرتكبها ، وتعترف الوحدات الجماعية الأخرى بهذا الجوار ، لأن صاحبه المستمتع به قد اكتسب عصبية جديدة . وقد رسم المجتمع بما وضع من عرف أقوى سلطانا من القانون الحديث فى الاجراء والحكم والتنفيذ جميعاً ، ضوابط هذا

(١) م . ع . دروزه ، المصدر السابق ص ١٦٧

(٢) م . ع . دروزه ، المصدر السابق ص ١٧٤

الجوار . ولم يكن من اليسير على الجير ، أياً كانت مكانته من الصدارة أو الأمارة فى قبيلته أن يأخذ على نفسه مسئولية الجوار ، إلا إذا أنس الكفاية فى ذاته وفى الجماعة التى ينتسب إليها أو يقوم عليها .

ويدخل فى هذا الباب أيضاً ، الولاء[1] ، وهو أن يلتحق أعرابى من قبيلة ما بيد فى قبيلة أخرى ويطلب منه أن يكون وليه ، فاذا قبل أصبح وكأنه من ذوى رحمه وقرباه ودخل فى عصبية جديدة ، وهذا الولاء كالجوار فى الحقوق والتبعات ، ولكنه أقوى منه فى وثوق الصلة بين المولى والجماعة ، وإن كان أقل منه درجة فى العرف الاجتماعى ، ذلك لأن المولى كان أدنى مرتبة من الحر ، وإن لم يبلغ درجة الأرقاء . ونظام الموالى فى العرف البدوى ، الذى كان معروفاً أيام الجاهلية وظل كذلك بين الأعراب بعد الاسلام ، وإن تعدلت صورته بعض الشىء ، غير نظام الموالى الداخل فى دائرة الرق الشائع فى الجماعات الاسلامية المتحضرة . واعتماده على المسئولية الجماعية المشتركة ، جعله لا يتم هو الآخر إلا بالاشهاد العلنى . وبذلك يتمتع المولى بالحماية العامة ويقوم بما يقوم به سائر الآحاد فى عصبيته الجديدة من القتال وطلب الثأر والغنيمة .

وكل هلالى صورة مصغرة من جماعته ، وكأنما صب الكل فى قالب واحد إذا رآهم غير المنتسب لهم لم يستطع أن يفرق بين آحادهم . مثلهم فى ذلك مثل أفراد الجيش الواحد فى الوطن إذا استعرضوا تشابهوا زياً وسحنة ، وأدت هذه الحياة التى تغلب عليها روح الجماعة بأن يتشابهوا كذلك فى الخصائص العقلية والنفسية ، فهم متوجسون أبداً يختصمون مع الطبيعة ، لا يحلون فى موضع حتى يلفظهم إلى موضع آخر . وتختصم وحداتهم بعضها مع بعض استثارة لكوامن العصبيات القديمة

---

(١) م . ع . دروزه ، المصدر السابق ص ١٧١

من ناحية ، واختلافاً على الرياسة أو الغنيمة من ناحية أخرى ، ويختصمون مع غيرهم من الجماعات التى يلمون بها أو يمرون عليها لا يستأنسون الا بذواتهم ، وكل من سواهم عدو لهم ، عليهم أن يبدأوه بالشر قبل أن يبدأهم ، واعتمادهم فى البقاء على الغنيمة يجعل صفة الاعتداء من أخص صفاتهم وألزم خلائقهم . وإذا كانت الجماعة كما رأينا تصدر عن غريزة الأبوة فى أعمالها واتجاهاتها ، فانها تصدر كذلك عن غريزة المقاتلة دفاعا عن الذاتية الجماعية وطلبا للغلب فى آن واحد [1] . وهذه الجماعات الهلالية المبنية على عصبية الدم والنزاعة الى التآزر بين آحادها لما يكتنفها من الخطر الشاخص فى الطبيعة وفى الناس — كما قلنا — يشتد وعيها لروح الجماعة وتتجسم فيها غريزة المقاتلة وتأخذ مكانها فى الصف الأول من المقومات النفسية العامة ، وتعمل على الموازنة بين تلك الجماعات فى خصامها وتحالفها من جانب ، وبين البيئة المادية ذات الطاقة المحدودة فى الانتاج من جانب آخر ، ولسنا فى حاجة إلى أن نلقى بالنا إلى مايحتفل به علماء النفس الجماعى من أن ظاهرة الرياسة فى القبيله ، إنما هى كذلك وليدة غريزة المقاتله احتفاظا بالسمات البيولوجية الغالبة فيها وإن بقيت كذلك آثار تصاحب انتقال الرياسة أو الامارة أو المشيخة من فرد إلى فرد آخر فى الوحدة الصغيرة أو الخلف العام . ومما لا شك فيه أن المفردات الدائرة على ألسنة هؤلاء الأعراب بعضها متصل بالقتال استفارا وإغارة واغتناما ، كما أن الصيغ المتعددة المتصله به تدل على ما لغريزة المقاتله من الشأن الكبير فى حياتهم . وهم كلما أصابهم مكروه اعتمدوا على روح الجماعة مما نجده فى استغاثاتهم ، وأغلب الظن أن لام الاستغاثة بقية من الكلمة الدالة على القدم فى ذاتها ، وعلى العصبية البطرقية فى إضافتها إلى الأب المباشر فى القبيله الخاصة أو غير المباشر فى الخلف العام .

---

(١) G.M.W. Medougal ص ٨٤

وكان من الطبيعى أن تحتفل الجماعة الهلالية بأنعامها ، فهى لا تستطيع أن تستغنى عنها فى جميع التصاريف ، وما نجد فى تعبير الأستاذ « مايرز » غلواً أو إسرافاً عندما قال إن هؤلاء « الرعاة » كانوا بمثابة الطفيليين على أنعامهم [1] وقد دخلوا طور استئناس الحيوان وتأليفه والتدخل الصناعى فى توليده وتكثيره والاهتمام بالأنواع الأصيلة منه . وهو الذى رسم لهم الانتجاع الموسمى للكلأ . وقد طبقوا على حيوانهم ما ألفوه فى مجتمعهم من العصبية الأبوية وأفادوا من القواعد البيولوجية فى الاحتفاظ بسلامة أنسابه وبخاصة فيما يتصل بالابل والخيل ، والثانية أهم عند الهلالية من الأولى لأنها كما يذهب إلى ذلك « مايرز » ، هى التى نقلت هذه الجماعات البدائية من طور إلى طور تعينها على الاغارة والنجاء وتصحبها حيثما تكون ، حتى أصبحت هذه العلاقة الحيوية بين الفرسان والخيل أدنى إلى القرابة ، فيها من التعاطف والحب ما بين الأقرباء . وتمايز الخيل عندهم كتمايز آحادهم بالاصالة فى النسب ومجاوزة القدرة فى الأوساط ، وقد اشتهر النجديون بخيلهم ، واختصت سليم بالتبريز فى هذا المضمار ودونت الكتب أسماء كثير من الخيل المشهورة « كالأحزم » وكان عند نبيشة ابن حبيب السلمى ذاع صيته يوم « الكديد » وسجل اسمه فى الشعر . و « الأزور » وكان عند عبد الله بن حازم السلمى ، ولا يقل شهرة عن سابقه . و « الأعوج الأصغر » وقد ذكر أنه كان عند بنى هلال بن عامر ولم يعين صاحبه على التخصيص ، ولعله سمى باسم « أعوج الأكبر » أشهر خيول العرب وأعظمها ذكراً على الاطلاق . ولا يفوتنا دلالة التسمية فى الخيل على المكانة والاعزاز ، . . ولا تسويتها وتعليمها إيرازاً لها وتعريفاً ، كيلا تختلط بغيرها . وقد بلغ من وثوق الصلة بين الخيل وأصحابها ، أن الفارس منهم كثيراً ما كان يعرف بفرسه لا بقسماته وزيه .

واحتفلت الجماعات الهلالية بأسلحتها لما تتصف به من النزعة الحربية ، ولكن

---

(١) J. L. Mayers : المصدر المذكور ص ١٧

هذه الاسلحة كانت من النوع الخفيف الذى يتلاءم مع طبيعة حياتهم المتنقلة أبداً والمعتمدة على امتطاء صهوات الخيول وظهور الإبل . وأظهر هذه الأسلحة « السيف » فى الدفاع عن الذات والمبارزة والقتال عن قرب « والرمح » للكر والاغارة والرمى عن بعد وكذلك « السهم » . وكان تدريبهم على أعمال الفروسية واستجلاب أسلحتهم من خارج جماعاتهم بالاغتنام أو الشراء ، يتطلب من كل فارس تدرباً بسلاح معين ، اختبر صلاحيته وتعود عليه فى الكر والفر أن يحافظ عليه محافظته على حياته ، وأن يصونه من التلف ، وأن يتعهده بالصقل والاصلاح حيناً بعد حين ، وكانوا يتصورون هذه الأسلحة وكأنها كائنات تنبض بالحياة ، سكبوا عليها من نفوسهم شعوراً ووعياً ووصفوها بالتمييز ومعرفة العدو والاقدام والحماسة ، وما إلى ذلك من أوصاف الفرسان أنفسهم [١] .

وكثيراً ما كانت تتحول الوقائع المادية بين الهلالية وغيرهم من الجماعات المعادية لهم إلى ما يسمى فى عرفنا الحديث « بالحرب الباردة » وينهض بها غالبا القادرون على التفنن فى القول ، كأن يتبارز شاعران مبارزة الفرسان ، ويعتز كل منهما بقبيلته ونسبه وأيامه ويهجو عدوه وتكون المنافرة أو المناقضة ، وقد تؤدى هذه أو تلك إذا أفلت الزمام ، إلى يوم مشهود بين الجمعين . وقد تستمر فتصاحب القتال الماثل ولا تنقطع بانقطاعه .

وتتسم الجماعة الهلالية بسمة أخرى قد قويت فيها واستقرت منها فى مكان الغرائز المتصلة بالأبوة المحافظة على النوع ، أو المقاتلة المحافظة على الذات . ونعنى بها الهجرة ، وقد رأينا أنهم كانوا يلتمسون الغيث انتجاعا للكلأ فى موسمه ويدورون معه حيث دار فأدى ذلك بهم إلى اعتياد النقلة المستمرة . فالجماعة كلها متأهبة أبدا

---

(٢) الآلوسى : بلوغ الأرب ، ج ٣ ص ٣٥٤ — ٣٥٧

للرحيل كلما ظهرت بوادر الجدب أو انقطاع الغيث لا يتخلف عنها أحد من الناس أو الأنعام ، لأن تخلفه معناه موته ، ولا تتلبث الجماعة أو تتريث لأنها إن فعلت تعرضت للهلاك . فتقوية بذلك روح الجماعة واشتد سلطانها على جميع الآحاد المنتمين إليها . وتحددت البيوت وخفت مئونتها فى الحمل والبناء جميعاً ، وعرف كل امرىء عمله إذا دعا الداعى إلى الظعن والانتجاع . وانقسام الجماعة الكبيرة أثناء الرحلة ، كانقسامها أثناء الاقامة إلى عشائر وأحياء قوامها القرابة الأبوية . وهذا الانقسام هو الذى ينظم جميع الشئون المتصلة بالرحلة من رياسات تتدرج فى إصدار الأوامر والنواهى وتلقيها إلى الحراسة وتنظيم وسائلها وأوقاتها ، وتوزيع المئونة بين آحادها ، إلى ترتيب الركب بين القادرين على الدفاع والاغارة ، وغير القادرين عليهما من الشيوخ والنساء والأطفال ، ومكان الأنعام والمتاع . وينبغى أن نلاحظ أن الهجرة الهلالية أو هجرة الأعراب بصفة عامة إجماعية ، وهى تختلف بذلك عن الهجرات الأخرى التى يقوم بها العدد الزائد من السكان عند ما يفقد التوازن بين التوالد والإنتاج ، كما أنها تختلف عن التوسع يقوم به ممثلون لجماعة من الجماعات . وأدى هذا إلى تأصل حب التنقلة فى النفوس ، فما من هلالى يطيق أن يقيم حياته فى موضع واحد ولو أكره على ذلك إكراها .

ورسبت هذه الحياة غير المستقرة فى نفوسهم أشتاتا من الأحاسيس ، فهم يكادون يتنبأون بالخطر الدافع إلى الانتقال قبل وقوعه ، مثلهم فى ذلك مثل الطير يتنبأ بالاعصار والسيل ، إلى بصر بالمواضع المجاورة لهم وما يعتورها من تغير . وصلة هذا التغير بنجوعهم وأثره فى تصاريفهم . كما أنهم لم ينوا أبداً عن العمل على كشف النجوع الملائمة لهم . وإذا سمعوا بمنازل أكرم من منازلهم رادوها ، وتجسسوا أخبارها ، وتعرفوا إلى أماكن القوة والضعف فيها ، حتى إذا سنحت الفرصة اهتبلوها وأغاروا عليها وقاتلوا أهلها وأرغموهم على استضافتهم وأنعامهم وتلبثوا بين ظهرانيهم أمداً

إلى أن يأتيهم باعث جديد على التحول ، فاما أن يعودوا إلى منازلهم الأولى إذا عاودها الغيث ، وإما أن يولوا وجوههم شطر موضع آخر إذا بعدت الشقة وطال الطريق .

ولما اتسعت الجماعة الهلالية وتعددت أقسامها اصطنعت وسائل غير الكلام المافوظ للتفاهم المتصل بالشئون العامة ، وبخاصة القتال والهجرة . وأبرز هذه الوسائل الطبول المتجاوبة ، فقد اصطلحوا بعدد الدقات عليها ونوع هذه الدقات على مختلف التعابير الجماعية من الدعوة إلى اجتماع ، أو الانذار بغارة ، أو الحث على قتال ، أو الاعداد لهجرة وانتقال .

وتنتقل التجاويب والمعارف فى الجماعات الهلالية المتنقلة المحاربة هذه بين الآحاد والأجيال بوسيلتين ، الأولى : التدريب المباشر وذلك فيما يتصل بالشئون العملية كالفروسية واستعمال السلاح والدفاع والاغارة والتأهب للرحيل . والثانية ، التلقين ، وهو يعتمد على الذاكرة لانعدام الكاتبين أو ندرتهم . ومجموع هذه المعارف والتجاويب هو ما نستطيع أن نسميه بالتراث وهو الذى يحافظ على خصائص الجماعة ومقوماتها العقلية والشعورية ، ويختزن أمجادها وأيامها المشهودة التى تتغنى بها تقوية للروح المعنوية الجماعية . ولما كانت الذاكرة لا تستطيع الابقاء على كل كلام ليست له صفة بيانية تميزه ، وكان السماع هو الحاسة التى تتلقى هذا الكلام المقصود به إلى التذكر والحفظ ، فقد أصبح من الضرورى أن يكون هذا التراث محبوراً له جرس ورنين ، فهو إما مجموعة من الوصايا المتفرقة المعتمدة على السجع والمقابلة وما إليهما وإما مجموعة من الأشعار المنظومة المقفاة تتلاءم فى الاسترسال والتقطيع والتنغيم ، وحاجات الاقامة إلى السمر والافادة وضرورات السفر على ظهور الابل وصهوات الجياد .

واتصال الجماعات الهلالية بغيرها من الجماعات اتصال حلف ومؤاخاة ، أو اتصال

خصومة ومعاداه ، يقتضينا أن ننظر فى الوسائل التى اصطنعتها للابانة عن ذاتيتها وتميزها عن غيرها . وليس فى اللغة العربية كلمة تطابق مطابقة كاملة ، الكلمة الأوربية Symbol فى دلالتها على جمع معين ، أو طبقة اجتماعية معينة ، أو حرفة معينة وما إلى هذا بسبيل . وترجمة هذه العبارة « بالرمز » هنا لا تصيب الغرض المقصود . ذلك لأن الرمز والكتابة وأضرابهما ، انما تقصدان إلى التعبير عن معنى مقنع . ولعل كلمة « شعار » هى أقرب الكلمات إلى المعنى المراد . ولا بد لهذا النظر من استقراء التاريخ العربى العام ، فهو يهدينا أولا إلى أن النبى صلوات الله عليه ، اتخذ اللواء فى مغازيه كما كان الحال قبله عند العرب [١] . وكانت شارة المغايرة هى اللون يتعارف به ولا يدل على أى معنى آخر ، فقد ذكر أن المسلمين استعملوا فى غزواتهم الأولى البياض . ثم نوّعوا وأضافوا إليه السواد تمييزاً للأشخاص ذوى الخطر . ولكن استعمال الأول أكثر ويقول « فون كرامر » [٢] : « يظهر أن محمداً استعار العقاب (النسر) الرومانى لواء لجيوشه » ويظهر أن هذا القول بالنقل عن الرومان فيه مبالغة دفع إليها الاستقراء الناقص للروايات والأخبار .

ولم يرد فى كتب التواريخ مايشير إلى الألوان الخاصة بمختلف القبائل والأحلاف . ولكن مما لا شك فيه أن الاحتفال برفع الألوية وعقدها للامارة فى الجمع ، لا يخرج عن العصبية البطرقية التى أشرنا إليها . من ذلك ما أورده أبو حنيفة الدينورى من أن عليا رضى الله عنه « عقد لقيس وعبس وذبيان راية وولى عليهم سعد بن مسعود ابن عمرو الثقفى [٣] » . واستمر المدلول اللونى بعد ذلك ، فاتخذ الأمويون اللون

---

(١) أمين الخولى : الجندية فى الأسلام ، ص ٥٤

(٢) Culturgesch des Orients فينا ١٨٧٥ — ١٨٧٧ ، ج ١ ص ٨١

(٣) ص ١٤٨

الأبيض فى رواية[1] والأخضر فى رواية أخرى ضعيفة[2] . كما اتخذ العباسيون اللون الأسود فى الألوية والطرز والثياب ، غير أنهم توسعوا فى مدلول اللون ، وتجاوزوا به مجرد التمييز بين الجموع ، إلى تنويع الواجبات الملقاة على عواتق الأمراء . أما الفرق والأحزاب والقبائل ، فقد كانت ألويتها تختلف باختلاف الألوان ، كما تختلف باختلاف ما يكتب عليها . ويعطينا الطبرى صورة للواء على بن محمد صاحب ثورة الزنج قال إنه « أتى بحريرة . . . ليتخذها لواء فكتب فيها بحمرة وخضرة : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله . . . » إلى آخر الآية . وكتب اسمه واسم أبيه[3] » . ولعل أهم ما صادفنا من النصوص القريبة من العهد الذى ندرسه ما روى عن سلطان تونس وهو « أن له علماً أبيض يسمى العلم المنصور يحمل معه فى المواكب . . . وأن الأعلام التى تحمل معه فى المواكب سبعة أعلام . الأوسط أبيض وإلى جانبه أحمر وأصفر وأخضر . . . وأن ذلك غير أعلام القبائل التى تسير معه فلكل قبيلة علم تمتاز به بما عليه من الكتابة . والكتابة مثل لا إله إلا الله . أو الملك لله . وما أشبه ذلك . . .[4] » وهذا النص قاطع فى أن القبائل كانت تتخذ الألوية والأعلام . وأنها لما تكثرت وضاقت الألوان عن تمييزها أصبحت تتمايز بما يكتب على هذه الأعلام . أما اللون الذى اصطنعته الهلالية بخاصة ، أو القيسية بعامة ، والعبارة التى آثرتها ، فلم نظفر بهما فيما بين أيدينا من تصانيف .

وكان المظنون أن هذه القبائل اتخذت الهلال شعاراً لها ، فقد كانت العشائر والبطون تجتمع عليه . وقد رأينا فى الباب الأول أن الصفة الطوطمية لهذه النسبة مفقودة أو تكاد . ولا يزال الباحثون فى حاجة إلى تبيان الصلة بين الاسم والمسمى

(١) أمين الخولى : المصدر السابق ص ٥٤

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥

(٣) الطبرى : ج ٣ ص ١٧٤٨

(٤) القلقشندى : المصدر السابق ج ٥ ص ١٤٢ و ١٤٣

و بين استعماله علماً على الفرد أو القبيل بين القيسية وغيرهم من العرب ، ثم بين أولئك ومن سبقوهم من البابليين . بل ومجاوزة هذا كله إلى تتبع عبادة القمر فى العالم القديم بأسره وليس هناك خطأ أشيع من القول بأن الهلال هو شعار الاسلام . ومن العجيب أن كثيراً من الكتاب المبرزين يقعون فيه . فالمحقق أن الهلال قد استعمل قبل ظهور الدولة العثمانية حلية فى الآثار . يقول الكاتب « كريزويل[1] » : « نرى رسم الهلال منتشراً فى الزخارف الفسيفسائية بقبة الصخرة (من نهاية القرن الأول الهجرى) بين رسوم الحلى . ويذكر رسمه فيها برسوم الهلال فى العصر الساسانى. ومن الغريب أننا نجده فى قبة الصخرة (قبل أن يتخذه الاسلام شعاراً بفترة طويلة) فى المواضع التى كان المسيحيون يستعملون فيها رسم الصليب عادة مثل أعلى القبة وأركان العقود وغيرها والواقع أن رسم الهلال كان يستخدم فى الزخارف الكلاسية ثم هجره المسيحيون إلى رسم الصليب ولكن الساسانيين أقبلوا عليه بعد ذلك كما يتجلى من رسوم ملابس النساء فى نقش طاق بستان الساسانى » .

ولعل أول ما ورد من ظهور الأهلة فى الرايات الاسلامية ما ذكر من وضع الفاطميين الهلال على الرماح ...[2] ومن المفيد أن نورد مثالا لذلك ، قال القلقشندى وهو يصف أعلام الفاطميين « ... وأعلاهما اللواءان المعروفان بلواءى الحمد وهما رمحان طويلان ملبسان بأنابيب من ذهب إلى حد أسنتهما وبأعلاهما رايتان من الحرير الأبيض المرقوم بالذهب ملفوفتان على الرمحين غير منشورتين يخرجان لخروج المظلة إلى أميرين معدين لحملهما ودونهما رمحان يرؤوسهما أهلة من ذهب صامت فى كل واحد منهما سبع من ديباج أحمر وأصفر وفى فمه طارة مستديرة يدخل فيها الرمح فيفتحان فيظهر شكلهما يحملهما فارسان من صبيان الخاص

---

(١) Early Muslim Architecture: K. A. C. Creswell ج ١ ص ١٢٥ و ١٩٦

(٢) أمين الخولى : المصدر السابق ص ٥٧

ووراءهما رايات لطاف ملونة من الحرير المرقوم ومكتوب عليها (نصر من الله وفتح قريب) طول كل راية منها ذراعان فى عرض ذراع ونصف فى كل واحدة ثلاثة طرازات على رماح من القنا عدتها أبدا إحدى وعشرين راية يحملها أحد وعشرين فارسا من صبيان الخليفة وحاملها أبداً راكب بغله[1] » ويذهب بعض العلماء إلى أن الموحدين فى شمال أفريقية اتخذوا الهلال شعاراً لهم على الألوية[2] . بيد أن هذه الأقوال لاتقطع باستعمال الهلال وحده شارة على دولة أو قبيلة . ولم يرد عن الهلالية أنهم أخذوا به فى ألويتهم، ولو فعلوا لما أغفلت كتب التاريخ عن ذكره . ثم ان اتخاذ الفاطميين الهلال كان أدنى إلى الحلية أو الشعار الثانوى . وقد حاربوا الهلالية أول الأمر . وغير معقول أن يكون الهلالية قد اصطنعوا الهلال بعد أن تحالفوا مع الفاطميين إذ لم يقم على ذلك دليل ما ، كما أن اتخاذ الموحدين للهلال يقطع بأن الهلالية لم يميزوا أنفسهم به وهم الذين حاربهم الموحدون . وليس يعقل أن يجتمع خصمان متحاربان على شعار واحد[3] .

---

(١) القلقشندى : المصدر السابق ج ٣ ص ٤٧٣ ، ٤٧٤

(٢) Hist. de L'afrique : F. Mercier باريس ١٨٨٨ ، ١٨٩٠ ، ج ٢ ص ١٠٠

(٣) يستبعد صاحب كتاب « الجندية فى الاسلام » أن يكون العثمانيون قد نقلوا استعمال الهلال شعارا لهم عند البوزنطيين فهو يقول « . . . ويعيد أن يتخذ الأتراك المتمسكون بجنسيتهم ودينهم جد التمسك شعار دولة تخالفهم جنسا ودينا بل انها مغايرة ومستعبدة . . . هذا وشعار البيزنطيين الصليب منذ عهد قسطنطين مؤسس القسطنطينية . . . » وربما أراد أن يخلص من ذلك إلى لفت النظر إلى ناحية إسلامية تبيح الاتراك العثمانيون منها هلالهم ولا يكفى التفريق بين الغالب والمغلوب دليلا على عدم اقتفاء الأول أثر الثانى . والاسترسال فى هذه النقطة يخرجنا عن موضوعنا والتفسير المتواتر هو أن الآلهة « هيرا » وكانت تسمى قبل ذلك أبوة اتخذت معبدا فى الموقع الذى شغلته مدينة بوزنطة . وقيل إن التى شادته هى ابنتها كيروإيسه Kero-ëasa أى المقرنة . وهذا العلم الدال عليها أصل الهلال فى الشكل والرسم جميعا . وساعد القرن الذهبى فى مشابهته الهلال على اتخاذه شعاراً على المدينة ، ثم انتشر الأخذ به طوال العصور القديمة والوسطى حتى إذا جاء العثمانيون لم يروا بأسا من استعماله ولا بأس عليهم فى ذلك فقد تسربت شارات اليونان إلى الرومان والفرس إلى العرب وهكذا . . . للتوسع أنظر The evil eye : F, T. Elworthy لندن ١٨٩٥ ص ١٨٣

وإذا انتقلنا إلى الزى فاننا نجد أن الأعراب جميعاً كانوا سواسية فى لبس المخيط ، وربما ألقوا رداء على ظهورهم وائتزروا بإزار [1] وهم يتفاوتون فى ذلك بتفاوت المراتب الاجتماعية لا بتفاوت العشائر والقبائل ، وكانت العمائم لباس الرأس المألوف عندهم . ولها عندهم أسماء شتى ، وما ندرى أهذه الأسماء مترادفة أو متنوعة . وكان من عادة الفرسان فى المواسم والأسواق أن يتقنعوا حتى لا يعرفهم الناس .

وكان بعض السادات منهم يتخذون علامة خاصة بهم تميزهم فى الجموع والمواسم . بيد أن هذه العلامة كانت شخصية وليست قومية أو قبلية . وكانت العمائم تتفاوت فى الحجم تبعاً لمقام صاحبها فى جماعته . ويستخلص مما رواه القلقشندى [2] . أن الأشياخ والعامة كانوا على زى واحد لا يمتاز بعضهم على بعض إلا « بشىء واحد لا يكاد يظهر ولا يبين وهو صغر العمائم وضيق القماش » واتخاذ اللون فى العمائم كان أقل شيوعا منه فى الألوية ، فكثيراً ما كان ينسحب الشعار اللونى من اللواء إلى الأزياء فيصطنع السواد للدلالة على أن الدولة قد سارت إلى العباسيين وهكذا ، كما فعل المعز بن باديس . والاستئثار بالخضرة فى العمامة إنما قصد به إلى التشريف بالقول بأن صاحبها من نسل النبى صلى الله عليه وسلم . أما أن القبيلة كلها ، هلالية أو غير هلالية ، قد اتخذت لوناً معيناً فى العمامة أو ما دونها فلم يرد فيه نص يؤيده أو ينكره .

وإذن فقد كان الهلالية يتعارفون فيما بينهم ويعرفهم غيرهم بالصورة العامة والجم الحاشد والمغايرة المطلقة للسكان المستقرين وبما كانوا يأتونه من الفعال التى تبررها شريعة البدو ، وتراها شرائع المدينة سرقة أو اغتيالا أو تخريباً . ولسنا نظن أن هناك ما يعبر عن خصوصيتهم بين سائر الأقوام ، إلا ما أثر عنهم من قول أو فعل تلخصه ملحمتهم المشهورة فى العالم العربى بأسره . وهى التى نحاول جاهدين أن نعرض لها بالدرس والتحليل .

---

(١) الآلوسى ؛ المصدر السابق ج ٣ ص ٤٠٦

(٢) القلقشندى : المصدر السابق ج ٥ ص ١٤٢ ، ١٤٣